(فهرست الكتاب)

صحيفه

خطبة الكتاب ٢

الباب الاول فى ذكر ما يتعلق فى مدينة قلقوطة ٤
المسماة ايضا كلكتة وسواحل نهر اوغلى وعمارات
تلك المدينة وحاراتها وما فيها من جمعية الاداب
المشرقية والمدرسة السانسكريتية ومجامع امناء
الدين والعوائد الهندية والخدمة من اهلها وكيفية
المعيشة فيها وجلب الطائفة المسماة كويس الى
خارج بلادهم وبيان ما يتعلق بمدينتى سرامبورغ
وشنادرناغور

الباب الثانى فى ذكر السفر فى نهرى باغيراتى والكنك ٢٦
وذكر مدن مورشداباد وراجمهال ومونغير
واصطبلات مدينتى غازيپور وبوكسار ومدينة
بيناريس وهيكل سرمات وصنم مدينة بيشارى
المسمى لات ومدرسة بيناريس وكتب اللغة الهندية
القديمة التى بخط اليد ومدينة الاهاباد ومدينة
كنبور وموسم رامه ومحرة الثعابين المعروفين
بالحواة والكلام على الپانديتية وخسوف القمر

وكيفية

صحيفه

وكيفية السياحة فى بلاد الهند ومصاريف السفر
الباب الثالث فى الكلام على مدينة اغرا والمدفن المسمى تاجمهال وحصن اغرا ومدرستها ومدينتى ماثورة وبندرابند وكريشنا واللبانات والقردة وغات بندرابند وهياكلها والاموات المطروحة فى الازقة وقراءة اللسان السانسكريتى وصعوبة تحصيل الشخوص المسماة مداليه والنقوش المرسومة على ألواح النحاس وعلى مدن دهج وبورتبور وغداوند وفتاجپورسكرى وعلى المنظر العام للبلاد المجاورة لمدينة اغرا وكيفية البناء والتصوير والنقش عند الهنود وعلى مدينة قانوجه ومن بها من البراهمة وبائعى المربات وعلى المداليات الكاذبة ٥١
الباب الرابع فى ذهابى الى مدينة دلهى وزيارتى فيها لاورد الحاكم وذكر الجنرال ونتورة والمبادرة بالسفر الى لاهور وعبور نهر موتليجه وذكر كاپورتيله ولصوص الليل وزيارتى لسردار كاپورتيله ٦٨

صحيفه

ووصولى الى لاهور واجتماعى بجناب الملك رانجيت سنغ وذكر الآلايات المضبوطة على منوال الضبط الفرنساوى وبيان نظام الادارة فى بنجاب وماجمعه كل من الجنرال كورت والجنرال وتتورة من المداليات وذكر الباندية الاعظم الذى بمعية رانجيت سنغ

الباب الخامس فى سفرى من لاهور الى كشمير ٨٥
والكلام على وزيراباد وغوزارات وغوزونوالة وعلى قارورات دفن والد رانجيت سنغ واحتفال جنائز الهنود والسخس وعلى بنبر وعلى معاملة النساء فى الهندستان وتحريض قتلى الاشرار فى الطرق وعلى الزواج فى الهند وعلى وادى راجور ومنبع المياه الكبريتية وعلى مايقوله الهنود فى شأن الدول الافرنجية وعلى مرورى من بير بانجال وسراية الباياد ووصولى الى كشمير

الباب السادس فيما يتعلق بالكلام على مدينة كشمير ١٠٤
وعلى القبة المشيدة فوق الجبل وبيان معتقد سكان هذه المدينة فى حالة واديها الاولية وذكر مايتعلق

صحيفه

جسيدنا سليمان عليه السلام ووصف كاسيابه
وعلى الآثار القديمة وعلى الراقصات وعلى بندى
كشمير وذكر الموانع التى عاقتنى عن اتمام
هذه الرحلة

الباب السابع فيما يتعلق بسياحتى فى داخل وادى ١١٤
كشمير و بمدينة بنيور وبالبركة الموجودة بقربها
وبهيكلها الهندى وبحدود غيطانها وآثارها
ونقوشها القديمة وبمدينتى بيدجيبار واسلام اباد
والآثار القديمة التى توجد فوق سفح جبلها وبمدينة
مونون ومغاراتها وبمدينة ورناغ وبالحجر المتكون
من النار والثلج وبمعادن ذلك الوادى وثعابينه
ودبابه وسباعه وثمورته الكثيرة الوجود فى كشمير
وتخطيطات السياحين الاول لهذا الوادى وخبر
موت الملك رنجيت سنغ وبالنساء السيخية والهندية
اللاتى يلقين بانفسهن فى النار عند احراق ازواجهن
وبسياحتى فى الغرب من هذا الوادى والهياكل
القديمة وبمدينة بارمولة وخط كامراج وقنة جبل
بالارامة وورشة الشيلان الكشميرية ومحصولات

صحيفه

وادى كشمير وعظمة نتائجه وفقر سكانه ورغبة السياح فيما فيه من الآثار وآداب اللغة القديمة وآداب الهنود

الباب الثامن فيما يتعلق برجوعى الى مدينة لاهور ١٣٨
وبغدران تاخير وبالخان المعد لنزول الغرباء فيه وبمدينة دلى وبآثارها القديمة وبالاثر المسمى كوتوب وبمدينة فيروزشاه لات وبالكهوف وبطائفة البارياس وبالفقراء الذين يأكلون رمم الادميين وبمدينة لوكنو وبمدينة قسطنطينا والاصنام اليونانية والاصنام الحادثة وبتربية الطيور ومقاتلة الفيلة وباللصوص المسمين توغ وبمدينة فيزاباد وبمملكة اود وبمدينة سلطانبورغ وبالرياح الحارة وبنزول الامطار الدورية وبقصائد الشاعر المسمى ريخ ويدا واخلاق واطباع اهالى اقليم بنغالة الواطى وبرجوعى الى مدينة قلقوطة

بيان الخطا والصواب الواقع فى هذا الكتاب

خطأ	صواب	صحيفه	سطر
شهدت	شاهدت	١٧	٨
الحرب	الحروب	٢٣	١٠
النفك	التفكر	١٠١	٤
منجمد	منجمدا	١٢١	٥
فلبث	فلبثت	١٤٥	١٤
امل	اوّل	١٤٦	١٠

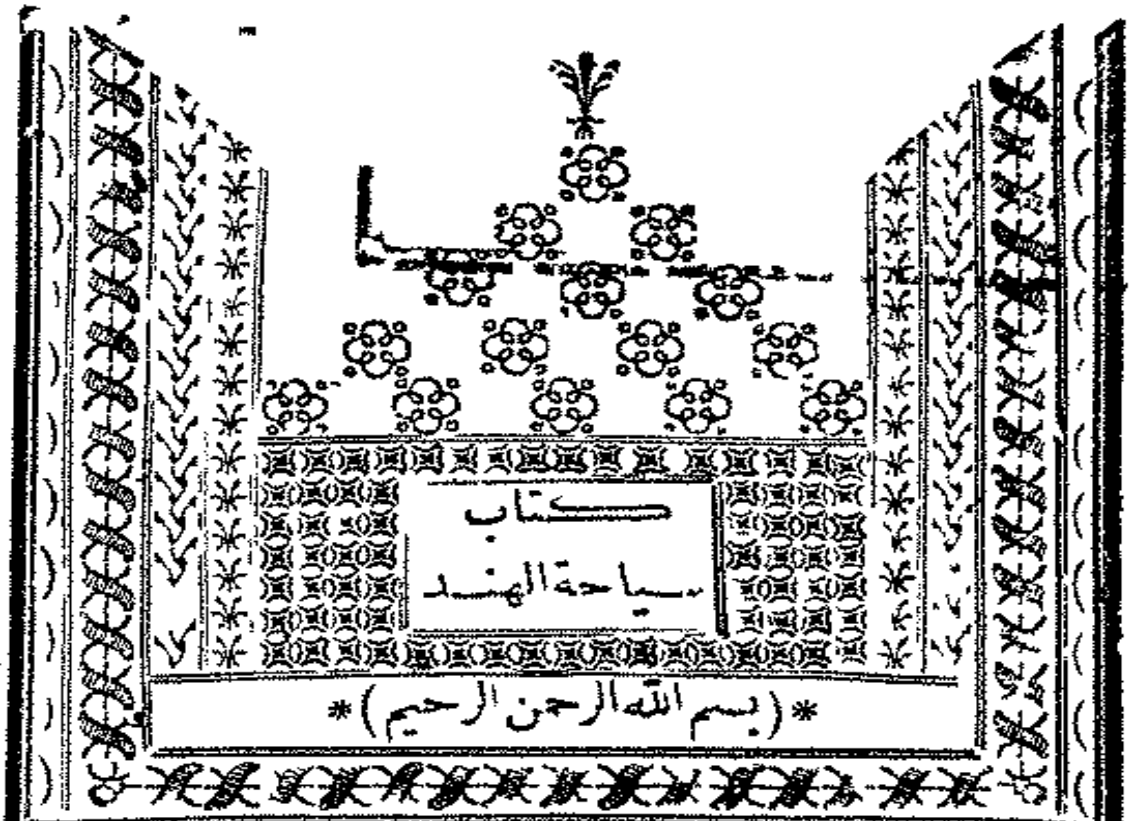

ان أبهج ما تحلت به الطروس * وخير ما تنافست به نفائس النفوس * حمد من تفرد بالاحاطة باحوال الكائنات * وشكر من اختص بعلم جميع الجزئيات والكليات * وصلاته مع التسليم * على نبيه الكريم * من شرفه برؤيته بلا انحصار ولا كيف * وانزل عليه لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف * افضل من هاجر وارتحل * وعن وطنه تحول وانتقل * وعلى آله واصحابه * وانصاره واحبابه * الذين طافوا فى الجهات لفتح البلاد * وساحوا فى الارض لارشاد العباد * ثم الدعاء لعزيز مصرنا * وغزة جبهة عصرنا * من

اظل الديار المصرية بظل الامان * وأفاض على اهلها بحار الاحسان والعرفان * من هو الفرقد الثانى * فى افق الصدارة العثمانى * حضرة الحاج محمد على باشا * بلغه الله فى الدارين مايشاء وماشا * اما بعد فيقول راجى رحمة ربه القدير * ابراهيم مصطفى المشهور بالبياع الصغير * هذه خدمة يسيرة * وتعريب رحلة صغيرة * للمؤلف او بير ثولد * ألفها فى سياحته الى بلاد الهند * وجدت فى كتبخانة حضرة البيك المفخم مدير المدارس * التى هى فى الديار المصرية من ابنع المغاوس * من اجابته السعادة بلبيك * سعادة امير اللواء ادهم بيك * لازالت كواكب سعوده فى سماء المعالى ساطعة * ولا برحت شموس معارفه فى افق المدارس طالعة نافعة * فصدر الامر بترجمتها من الديوان * الى حضرة علامة الزمان * من رقى فى مراقى الشرف ارفع محل واعظمه * حضرة امير الالاى رفاعة بيك ناظر قلم الترجمة * فعينى حفظه الله لترجمتها من اللغة الفرنساوية * وافراغها فى قالب اللغة العربية * فشمرت فى تعريبها عن ساعد الجد والاجتهاد * راجيا من الله تعالى التوفيق الى طرق السداد * ومؤملا حسن القبول * وشمول النظر على وفق المأمول * فأقول وما توفيقى الا بالله * فى ابتداء امرى ومنتهاه * قال صاحب الاصل

(الباب الاول)

فى ذكر ما يتعلق بمدينة قلقوطة المسماة ايضا كلكته وسواحل نهر اوغلى وعمارات تلك المدينة وحاراتها وما فيها من جمعية الآداب المشرقية والمدرسة السانسكريتية (اى التى يتعلم فيها لسان الهند القديم) ومجامع امناء الدين والعوايد الهندية والخدم من اهلها وكيفية المعيشة فيها وجلب الطائفة المسماة كويس الى خارج بلادهم وبيان ما يتعلق بمدينتى سرانبور وشاندرناغور

كان ابتداء رحلتى فى البحر من مدينة غراوسند فى العاشر من شهر اغسطوس سنة ١٨٣٧ من الميلاد وقد كنت اودّ أن اسافر فى سفينة من سفن الدولة الانكليزية على طرف الميرى فلم يتيسر لى ذلك فاتفق السفر على طرفى فى سفينة من السفن الانكليزية مؤملا أنى اجتمع فيها ببعض اناس ممن سافروا الى تلك البلاد واستوطنوها وصار لهم فيها وظائف وخدم فأستعين بهم واسترشد بنصائحهم واشدّ بهم عضدى فى ادراك ما أنا بصدده من الرحلة الى تلك الجهة فقطعت مسافة من البحر وانا على احسن حالة ثم خرجت على قلقوطة فى السابع عشر من شهر دسمبر من السنة المذكورة

وهذه

وهذه المدينة واقعة على نهر صغير يقال له اوغلى وهو فرع من فروع نهر الكنك تصعب فيه الملاحة جدا لاسيما الصعود فى فصل الشتاء الذى هو فى الغالب وقت تسلطن الرياح الشمالية على هذا النهر وفيه مراكب بخار لجر السفن بالاجرة واجرتها فى اليوم اربعمائة من النقود المسماة ربية (وقدرها ألف فرنك)

ونهر الكنك ينقسم عند مصبه الى فروع لاتحصى كثرة منها فرعان اصليان يحيطان ببقية الفروع ويتكون بينهما قطعة من الارض على شكل زاوية تسمى الدلطة الهندية وهذا الجزء من الساحل لا يمكن الوصول اليه ويسمى عندهم ساندربند والربانية اى رؤساء السفن يمكثون تجاه مصب النهر المذكور فى سفن صغيرة معتنى بتنظيفها على ما ينبغى وهم مجمكون من طرف القمبانية الانكليزية لتلقى المرضى الذين يأمر لهم الاطباء باستنشاق هواء البحر فيمكثون بها عندهم بعض اسابيع ويدفعون لهم مبلغا من الاموال فى نظير خدمتهم ومؤونتهم فهذا هو اصل اكتساب هؤلاء الربانية الذين هم فى سعة من العيش ولهم خدم واتباع بحيث اذا ارادوا الذهاب الى قلقوطة ذهبوا اليها فى نفر عظيم من أتباعهم •

ومن مدخل هذا النهر يأتى ضابط من ضباط ديوان الجمرك ويمكث فى السفن التى هنالك وهؤلاء الضباط وكذلك الربانية لامشابهة بينهم وبين ضباط الجمرك والربانية باوروبا فان من رأى هنالك ربانية الانكليز تعجب من اوّل وهلة من اتساع دائرتها وكثرة مصالحها وخدمها ولايجد فى ديوان الجمرك من موجبات السآمة والضجر مايجده فى بلاد اوروبا بل يصدق اهله كل مايدعيه المسافر وقل أن فتشوا مامعه من الامتعة والبضائع *

وشواطئ نهر الكنك مغروسة بالاشجار اللطيفة المورقة دائما وفى وسطها اصنام واخصاص هندية ومنتشر فيها خمائل من اشجار جوز الهند والنخل والموز يجلس تحت ظلالها قوم سود الالوان نحاف الاجسام يأتون اليها فى زوارق ويبيعون للمسافرين مامعهم من ثمار المدينة وفى اوقات الدعة والبطالة يغتسلون فى النهر فينزلون فيه جميعا رجالا ونساء كبارا وصغارا وينظر بعضهم عورة بعض بدون حياء ولا خجل فكأن سواد لونهم يقوم عندهم مقام الساتر كما قاله الاسقف ايير ويتسمع لهم فى الليل على بعد غناء يصحبه صوت آلاتهم المسماة تمتام ويصحب ذلك ايضا عواء ابن آوى الشبيه بصوت النائح الحزين واذا انحسرت مياه البحر انكشفت

شواطئ

شواطئ النهر فتاتى اليها تماسيح كبيرة يقال لها كاثمان فتنغمس الى اوساطها فى اوحال تلك الشواطئ حتى يظهر للناظر من بعد انها سوق اشجار مطروحة فقد اتفق أن شابة مقنعة الوجه مرت قريبا من احد هذه التماسيح فما كأنها شعرت بذلك لعدم مايدل على حيوانيته من التحرك وغيره واذا قربت من قلقوطة وجدت حركات السفن الصاعدة والمنحدرة لاسيما السفن الصينية ذات الشراعات الملونة وكذلك القرى اللطيفة المبنية على الشاطئ تجعل لتلك الارض منظرا آخر يفاله فى النفس موقع عظيم لكونه يعقب منظر البحر الدائمى الموجب للضجر والملل * وبالجملة فهذا المنظر الجديد الذى لايعرف الى الآن الا فى مجرد الرسم والتخطيط يورث العقل افكارا غريبة ويحدث فى الفكر تصورات عجيبة فمن ثم كنت لا اسأم من تردد الطرف نحوه وادمان النظر اليه غير أن به من جهة اخرى مايعكر المزاج ويشوش الخاطر وهو مشاهدة الرمم التى تتلاعب بها الامواج ومايشم من رائحة الموتى الذين يحرقونهم على الشواطئ وتزدحم عليها الكلاب والغربان والنسور بل تجدها فى نفس المدينة سابحة حول السفن فمثل هذا المنظر الذى لايتغير هو مما يشوش خاطر من كان رقيق المزاج من اهل اوروبا حتى ان دلك

يمنعهم من شرب ماء النهر فان فقراء الهنود يلقون موتاهم
فى الانهار بخلاف اغنيائهم فيحرقون من مات منهم فتنتشر
رائحتهم الى اماكن بعيدة وليس تشويش الخاطر لمجرد كون
هذه الرائحة كريهة جدًا بل لكونها ايضا تذكر من يشمها
هذه العادة الذميمة

ثم ان مدينة قلقوطة تسمى عندهم مدينة القصور
لعظم بيوت اعيانها وفيها كثير من آثار الفنون
والامور النافعة وفيها ايضا منابر لمد السفن ومعامل للحديد
وورش لعمل آلات الوابورات وقلعة وسراية لاقامة الحاكم
وكنائس وأرصفة وديوان جمرك وضرب خانة وبانكه وبرك
يكتنفها منتزهات وفيها ايضا مدارس واسبتالية ومشتدى
لاعيان المدينة ومحكمة لفصل الدعاوى وتياتر اى ملعب
وعمارات اخرى غير ذلك ولا شئ من هذه العمارات غريب
البنيان حسن الهيئة غير انها من حيث مجموعها لطيفة
مستحسنة * وبمجرد الوصول الى تلك المدينة ترى الحصن
وحدائق خورانتى المتسعة والعمود المرتفع فى وسطها
وما يكتنف ذلك من البيوت اللطيفة وسراية الحاكم وصوارى
السفن السائرة لكثرتها مياه النهر كل ذلك يتكون عنه منتزه
عظيم من اطرف منتزهات الدنيا * وبالجملة فمدينة قلقوطة

هى بلا نزاع الطف مدن الهـند على الاطلاق وان كان ما فيها قريب عهد بالتجدد والحدوث

ومساكن الخواص فيها تشتمل على ايوانات واعمدة وازجة وقاعات متسعة لتلقى الناس وعما يزيدها عظما وبهجة ساذجية اثاثها وفرشها وسطوح بيوت تلك المدينة مستوية بحيث تصلح للتريض والفسحة وبيوت اهلها المتأصلين بها تحتوى على صحن فيه حوض ماء لاجل جلب الرطوبة والطراوة فى داخلها وعلى ازجة مكشوفة مشرفة على الاصحن بحيث يمكن للنساء التريض والفسحة فيها بدون أن ينظرهن احد

وازقة هذه المدينة ليست على نمط تلك العمارات فى الرونق والبهجة فانها عادة تحتوى من احدى جهتيها على جدول ماء جار يتردد اليه اهل المدينة لاجل التنظيف وتحسين الهيئة ومن الجهة الاخرى على جدول ماء راكد يمكث فى مقر واحد عدة اشهر وله رائحة كريهة تضر بصحة اهل المدينة * ومن الغريب أن الانكليز يتحملون مثل هذه الوظامة مع أن لهم فى غير ذلك مزيد اعتناء واهتمام ومعظم نظافة الازقة وازالة القاذورات هنالك موكول لطير الكركى فلما كان هذا الطير تحت حماية الضابطخانة الانكليزية

وكل من تعرض له بالقتل يدفع مغرما معلوما
وعلى الشاطئ الآخر من النهر بستان بنباتات متسع يتردد اليه الناس قليلا وارباب الادارة هنالك يحسنون ملاقاة من قدم عليهم من السياحين ويقابلونهم بالترحيب والبشاشة واسباب التعلم والتعليم هنالك ميسرة مسهلة
ثم ان المحل المعد لمجالس جمعية الآداب المشرقية يشتمل على تحفخانة وخزانة للتاريخ الطبيعي وعلى كتبخانة لم تزل ترداد فيها الكتب وتتجدد بتجدد الايام وقد صغر هذا المحل الآن عما كان عليه سابقا وتجد في صحنه مقدارا عظيما من التماثيل والاحجار المنقوشة بالكتابة وهذه الجمعية التي أسسها سير وليام يونس لتكون مركزا لجميع المعارف التي تعود بالنفع على بلاد الهند قد وفت بما كان يؤمله منها موسسها حيث جاءت على طبق مرامه بالكلية فان علماء الآداب والآثار القديمة وعلماء الطبيعة وكذلك ارباب الحرف والصنائع يجتمعون فيها ويأتون اليها بثمرات اعمالهم واجتهاداتهم * وفي هذه الازمنة الاخيرة قويت الرغبة في العلوم الطبيعية حتى صار يخشى من ذلك على الآداب أن تتعطل وتمسك عن التقدم بترك ممارستها ومطالعة كتبها بل تعطل نشر الكتب السانسكريتية لكن بمنه تعالى

لم يمكث ذلك مدة طويلة فانى لم افارق مدينـة قلقوطة حتى شكرت ارباب الجمعية على ازالة هذا التعطل واثنيت عليهم الثناء الجميـل وفاء بحق شكر تلك النعمة الواجب على كل راغب متولع بالآداب السانسكريتية فان الفضل لهـم فى هذا الصنيع لاسيما يمس برنسيب الذى جمع بين معرفة الآثار القديمة وعلم الطبيعة فانه لم يال جهدا فى هذا الغرض المحمود ولكن من سوء الحظ كان هذا آخر المجهودات التى بذلها فى توسيع دائرة العلوم هذا الحبر الذى اشتهر بكثرة المعارف على اختلافها وعرف بحسن الاخلاق ولطف الشمايل

وفى المدينـة ثلاث مدارس كبيرة احداها المدرسة السانسكريتية والثانية مدرسة المسلمين والثالثة المدرسة المعدة لتعلم لغة الانكليز والهند * فاما الاولى فيتعلم فيها لسان الهـند القديم بسائر فروعه فيقرأ فيها من النحو اجرومية المؤلف ووبدوا ويقرأ فيها ايضا علم البيان والاحكام الشرعية والعلوم الرياضية والهيئة وقد حضرت فى هذه المدرسة بعض دروس فوجدت التلامذة فيها لا حرج عليهم فى التكلم والتنقل من موضع الى آخر مع أن السكون والرزانة من خصوصيات اهل المشرق الا أنهم لا يحثون على ذلك

فى مدارسهم * والپانديتية اى المعلمون لهذا اللسان ينطقون بألفاظ اللغة الخاصة بالعلوم كما ينطقون بألفاظ اللغة العامة المتداولة بين الناس وهو نطق وحشى فاسد مخالف للحدود المقررة فى النحو خال عن التناسق والائتلاف فتراهم ينطقون بأحرف الصفير الثلاثة كالحرف الذى مخرجه اللسان وهو الشين ولا ينطقون بالالف المقصورة فى اوساط الكلمات ولا فى اواخرها ويعوجون افواههم تعويجا عنيفا عند اختلاس الحركة او الوقف على حرف الغنة * وتلك الدروس يحضرها الناس كثيرا وهذه التربية التى هى عبارة عن علم بلا عمل لا يترتب عليها ثمرة فان التلامذة بعد خروجهم من المدرسة بقليل لا يعتنون بشأن ما تعلموه فيها كما يقع ذلك عادة ببلاد اوروبا فى شأن دروس المدارس الكبيرة واغلب شيوخ الپانديتية لا يتكلمون الا باللسان البنجالى بخلاف الشبان فان اكثرهم يتكلم باللسان الانكليزى وقد اخذت واحدا منهم لاجل القراءة عليه فوجدته لا يقدر على توضيح ما خفى معناه من العبارات النحوية واخبرنى أنه انما تعلم النحو بمجرد الحفظ من غير تعقل لمعناه كبقية اخوانه وانما كان يحسن تفسير غير ذلك من عبارات الكتب السانسكريتية وكان كالاخرس

بالنسبة

بالنسبة لما يخص الدين فكان لا يتفوه فى هذا المعنى بشئ وابى فمن يطالع معى الجزء الثانى من كتاب مانو لكون شرحه يشتمل على بعض كلمات من وبدا (هو كتاب عقائد الهند وديانتهم) ولكنهم يتساهلون مع اغنياء الانكليز اصحاب المناصب العالية ولا يدققون معهم كغيرهم فلذا استعان بهم الانكليز على تراجمهم الاولى وتأليف كتبهم الاولية فى النحو وعلى تأليف قواميسهم ومن ظن أنه يكتسب منهم شيأ بالمخالطة والملاطفة فذلك منه محض غرور لا طائل تحته

ومما يشهد لذلك أنه كان معى عدة مكاتيب من طرف موسيو نوروايير احد ضباط الجهادية الى رجل من اغنياء اهل قلقوطة وعظماء اعيانها المعتبرين يقال له رضا كتنيب وكان قد ألف قاموسا واهدى منه الى كثير من الناس فطلبت منه نسخة فلم يسمح لى بها فقيل لى ان توجهك الى منزله وسعيك لزيارته هو الذى قعدبك عن الاعتبار لديه واوجب استصغارك فى عينيه وهذا هو الواقع فانه لا يفوز بمرامه عند اهل الهند الا من كان ذا ثروة وشوكة

وكثير من اهل الهند من يتعلم اللغة الانكليزية والهندستانية والفارسية ليتقلد بالوظائف والخدم التى لابد فيها من معرفة هذه الالسن

وهنالك جمعيات معدّة لنشر الدين وتوسيع دائرته الا انها قليلة الجدوى وقد ذكرلى جماعة من الطائفة القسيسية الانكليزية انهم شاهدوا انتشار الدين القاثوليقي الرومانى مع قلة الاعتناء بشأنه هنالك ولما كان للعامة من الاهالى ميل شديد الى الظهور بمظهر الابهة والتحلى بالحلى الظاهرية وكان لقسوس الطائفة الانكليزية فى سائر الجهات خدم وحشم وكان لهم فى دعاء الهنود الى دينهم طرق اشدّ فى التأليف والاستمالة مما يسلكه فى ذلك الفقرآء المتقشفون من قسوس الفرنساوية وجب أن نقول ان الذى اوجب قلة نجاح الجمعيات القسيسية فى دعوتهم انما هو قسوتهم وتشديدهم فى التحضيض على قراءة الانجيل وحيث كان الهنود يقرؤن التواريخ الاثرية النصرانية من غير أن يتعلموا قبلها مايستعدون به لقرآءتها من المبادى كانت لاتنفع فى ارشادهم كما لاتنفع فى ذلك ايضا تواريخهم الهندية على أن بعض تلك التواريخ تمجه طباعهم ولا يلايم عقائدهم وبالجملة فالظاهر أن الاديان عندهم على حدّ سوآء واما رفض الديانة الهندية واجابة داعى النصرانية فانما وقع ذلك من اغلبهم فى زمن القحط وانجاعة حين كان الدعاة يجمعون كثيرا من اليتامى لاجل تربيتهم وادخالهم فى دينهم

والجمعية

والجمعية فى قلقوطة تؤلف من عدد كثير ويحتفلون احتفال الفرح والمسرّة فاذا قدم الحاكم الى المدينة ذهب الناس لزيارته كلّ اسبوع واكثروا من الرقص حتى ان الانكليز الذين فى بلاد الهند يميلون جميعا الى مثل هذا الرقص وتستحسنه اذواقهم ويسمونه بالحظ الفرنساوى مع أنهم يجزمون بأن كثيرا منهم بالنظر لسنه ومقامه يصير بالميل الى ذلك عند الفرنساوية من قبيل الهزؤ والسخرية * ويحضر فى جمعيات الهنود بعض اعيانهم حتى ان الحاكم نفسه يذهب عند بعض الناس فى الولائم والمواسم فقد ذهب فى مثل ذلك الى دوار كانوت طاغور وهو من اغنياء التجار وكان منذ قليل قد سافر الى مدينة باريس وعقده الفرنساوية من امراء الهند

وعوايد الهند القديمة لم تزل باقية على قوتها والمحافظة عليها غير أنه يحصل فى اجرائها نوادر عظيمة فالشرائع عندهم تخص كل طائفة بوظيفة فتخص طائفة البراهمة بمطالعة كتب الدين المسماة ويدا وتدريسها وطائفة الكشاترية بالحرب ومحافظة المدن والاهالى وطائفة الوبسنية بالتجارة والسدرية بالانقياد الى الطوائف الاخرى وامتثال اوامرهم وتمنع الاكل من طعام جهزه واحد من الطائفة الدنيا فيؤخذ

من ذلك أن اغنياء الهند لهم طباخون من البراهمة ويوابون من الكشاتريه وهاتان الطائفتان يقومان ايضا بهاتين الخدمتين اى خدمتى الطباخة والحرس للسياحين من اهل اوروبا وهنالك رجل شهير وهو رضا كتيب المتقدم وهو وان كان من طائفة السدريه الا انه ذو ثروة عظيمة وفى خدمته كثير من البراهمة وله اعتبار عظيم عند الهنود وانما وصلت اليه هذه النعمة لسعده ووفور حظه اذ قوة تأثير الدرهم والدينار * واحدة فى جميع الاقطار * وهنالك كثير من فقراء البراهمة يتكسبون باشتغالهم وتشبثهم بالحرف والصنائع حسبما اوجبته الشرائع على فقرائهم وقد عرفت منهم جماعة بعضهم سواق عربات وبعضهم جمال تحتروانات * والهنود قائمون بما عليهم من الاغتسالات التى كلفتهم بها شرائعهم فيأخذون الماء مرارا ويتمضمضون به ويغسلون اعينهم ونهر اوغلى وان اشتهر أنه من فروع نهر الكنك المقدسة عندهم الا آن واضع شرائعهم لم يلتفت الى مياهه المعكرة بالطين والاوحال والاالمائل الى الاغتسال بها قطعا واهل البلاد يتزلون فيه بثيابهم ويتركونها تجف على ابدانهم ولو فى فصل الشتاء الشديد البرد الذى تتأثر منه الافرنج (المتعودون على تحمل مشاق البرد لبرودة بلادهم) وفى جميع

اماكن

اما كن المدينة تجد تماثيل معبودهم المسمى سيوا وغيره من آلهتهم فيجثو العباد على ركبهم أمامها على رؤس الاشهاد ويكثرون من التلوى والتعوج وترى فى المدينة ايضا من ابناء الطريقة المسمين بالفقرآء من ينذر على نفسه أن يمشى رافعا ذراعه الى اعلى او يمشى على ركبتيه ومنهم من ينذر على نفسه امورا اخرى من هذا القبيل وكذلك تجد فيها انوارا مباركة عندهم يطلقونها تمشى حيث شاءت وقد يطلقون سراحها اذا عرض للعائلة امر مهم وقد شهدت من مواسمهم الدينية موسما يسمونه پوجا فرأيت فيه اناسا من ارباب الحمية الدينية يربطون انفسهم بواسطة خطاطيف من الحديد يغرزونها فى اجسامهم على خشبة متحركة ويدورون بدورانها وهم معلقون بها وينثرون على الحاضرين ازهارا وترابا احمر وتراهم يتبسمون مدة سيلان الدم من جروحهم وحكامهم من الانكليز يقرونهم على هذه الاوهام الفاسدة واذا اوذوا فى امر دينهم فلا بد وأن يموت منهم اناس شهدآء فى حب الدين

ومتى وصل الانسان الى مدينة كلكتة جاء اليه عدد عظيم من الخدم الهنود ومعهم شهادتنامة من سادا تهم الافرنج الذين يدعون أنهم كانوا فى خدمتهم * وهذه الشهادتنامة

يستعيرونها ويبيعونها من بعضهم ولا يعرفون مضمونها وربما كان فيها ما يدل على مخاتلتهم وخبثهم وآحاد التجارة والخدم الافرنج يثنون على خدم الهنود ويمدحون خدمتهم * وقد تلقب خدم الافرنج الذين ارتقوا الى درجة السيادة واتخذوا لهم خدما بلقب تشريفي هنالك وهو كلمة صاحب (ومعناه سيد) ويذهبون لاجل الرياضة والتزاهة بالمدينة في تختروانات * وفي هذا الوقت (اي وقت الوصول الى المدينة) يأخذ القبودان وضابط السفينة خدمهم من الهنود لان نفوسهم تأبى استخدام الافرنج ويستعظمون أن يروا الافرنجي خادما * ومما يخص الادارة من المصالح والوظائف الهينة يناط بها اناس من الهنود لهم معرفة باللغة الانكليزية * وكثير من التجار من يتكلم ايضا بهذا اللسان الذي ينتشر هنالك في كل سنة اكثر مما قبلها * وبعضهم يتكلم بالفرنساوية * ويسهل على من تورط في مشكلة بمدينة كلكتة أن يتخلص منها بواسطة معرفته للسان الانكليزي وبعض كلمات من لسان هندستان اوردو * واكثر اللغات اتساعا في بلاد الهند هي اللغة البنجالية التي يتكلم بها الهنود الا أنه قل أن تدعو الحاجة الى استعمالها * والتجار يعرفون اللغة الانكليزية والشيوخ البانديتية هم قليلوا

المخالطة مع غيرهم * والذى اراه أن معرفة لسانهم ليس لها كبير جدوى

وفى مدينة كلكتة منازل خانات عظيمة ومتاجر فاخرة مما يتحصل فى مدائن اوروبا الكبيرة فهى وصلة بين اخلاق الافرنج والهنود * ويتنفع السياح بالاقامة فيها مدة انتفاعا عظيما * فانها زيادة على ما يستفاد فيها من انواع المعارف يرغب فيها ايضا لما احتوت عليه من التحفخانة والكتبخانة وبستان النباتات * وصنائعها وتجاراتها عظيمة جدا وتعقد بها المحافل والمواسم وفيها اوهام دين البراهمة وعقائد الاسلام * ولا يمنع اهلها الافرنج من الحضور فى المواسم التى يعملونها بمنازلهم فى الازمنة المعينة لها بمقتضى دياناتهم واظن أن هذا الترخيص لا يقع للافرنج فى غير هذه المدينة من البلاد العليا وفيها ايضا معلمون على غاية من المهارة والمعرفة يسمون باندية ومدرسون عظام يعلمون اللغة الفارسية والهندستانية وهما لغتان لا بد منهما لمن اراد السياحة فى بلاد الهند

ومصاريف المعاش الضرورية فيها جسيمة حيث أن امور الرفاهية فيها من الامور الواجبة * وهى وان كانت اثمانها هينة الا انها لا تخلو عن مزيد كلفة ومشقة فان الانسان من

اهلها محتاج لمقابلة ارباب الرتب والمناصب العالية فضرورة قبوله عندهم تلجئه أن يسلك مسلكهم ويتزيا بزيهم *
واجرة المنازل لخانة على النازل بها في كل يوم ست روبيات حسبما جرت به العادة (والروبية فرنكان ونصف فالستة منها تعادل خمسة عشر فرنكا) واجرتها عليه في كل شهر مائة روبية (اى مائتان وخمسون فرنكا) واقل ما يلزم لمن نزل بها من المسافرين خادم واحد أجرته في كل شهر ثماني روبيات وغسال اجرته في الشهر تسع روبيات تقريبا * واجرة العربة في اليوم الواحد ثماني روبيات وفي الشهر مائة وخمسون واجرة التختروانات التي تحمل على ظهور الآدميين في كل شهر خمسة وعشرون * وهي دائما موجودة في مواقف المدينة * ومثل هذا الركوب لا يستعمله اهل اوروبا مع أنه اسهل وأدعى للراحة لمن اعتاده
وللطبيب في عيادة المريض ست عشرة روبية في كل مرة واجرة المنشئ الماهر اى خوجة اللسان الفارسي والهندستاني وكذلك الخوجة الماهر من الباندتية اى الذين يعلمون اللسان السانسكريتي وهو لسان الهند القديم خمسة وعشرون فصاعدا الى ثلاثين في كل شهر * واذا استحسن الانسان أن يستأجر لنفسه دارا وهو الاولى لمن احب أن يتعود على

عوايد

عوايد الهنود فالمصاريف واحدة تقريبا * واجرة البيت اللائق في الشهر اربعون روبيـة فاكثر الى خمسين ولا بدّ للانسان من عدّة خدم كل واحد منهم يلتزم بالخدمة التي تخصه فمن يمسح الشفرة مثلا لا يكنس الارض بل ذلك وظيفة غيره

وكانت الاسواق اولا مهمة فلما اتخذت المخازن الافرنجية والمحال المعدّة للبيع في المزاد اضمحلّ حالها وقلت اهميتها * ومايصنعه اهل الهـند المتأصلون يباع بثمن بخس الا أن المشترى غالبا يغبن في شرائه بخلاف البضائع الافرنجية فانها غالية جـدّا

وفي المدينـة قهوة اوقهوتان يتعاطى فيهما المشروبات الثلجية ويجلب اليها الثلج من امريكة فيشترى الهنود من ذلك جميع ما يأتي اليهم منها ولو لم تدع الحاجة اليـه * وانما ذكرنا ذلك لنبين كـثرة بذلهم حتى في الاشـياء التـافهـة

ولهم مزيد اعتناء بعربات النقل ولا يقبلون في مدينتهم فيلا ولا جملا خشية أن تفزع من ذلك الخيل وهـذا خاص بمدينـة كلكتة دون غيرها

ثم انه يمكن للانسان أن يضع ماله عند الهنود بالمرابحة فيأخذ ربح المائة تسعة في السائر الجـارى فان وقف على ثلاثة

اشهر اخذ ربحها اثنى عشر وهذا المقدار اعنى الاثنى عشر هو ما جرت به العادة عندهم فى المشتروات ذوات الإسقاط ولا تعرف بانكات اوروبا هذا التغالى فى الاسعار فان بانكة بنجالة لا تجعل على المائة الا اربعة

والربا عند الهنود غير محظور فقد لا يتيسر القرض الا لمن دفع ربح المائة خمسين ولا ادرى هل نبه مشترعو الافرنج على مثل هذه الصورة * وكيف يتكلم من قانون التجارة على قرض اختص به القيودانات

وفى كلكتة من انواع التجارة نوع من جلبة الرقيق وهو جلب طائفة الكولية باستمالتهم وترغيبهم باموال مخصوصة حتى يخرج هؤلاء المساكين من اوطانهم الى الجزائر الممنوع فيها الاسترقاق ولا يدرون ماذا يصنع بهم ولا كيف تكون عاقبة امرهم فيجمعونهم فى بطون السفن المعدة لذلك ولخشية هروبهم يتركونهم فى هذه الحال مدة رجوعهم فى النهر حتى تنقطع انفاسهم فقد اخبرنى من اثق به أنه كثيرا هلك اناس من هؤلاء الاسرى الاشقياء من العطش والحر حال انحدارهم فى النهر المذكور وقد عاين هذه المعاملة السيئة جماعة من اهل الرأفة والشفقة الذين لا يرون جواز جلبة الرقيق لما عندهم من خلوص الطوية وسلامة الباطن

فانكروا هذا النوع الجديد من الجلبة المذكورة غير أن الحكومة لا تتأثر من مثل ذلك ولا تستثقله وفى اقليم بنجالة الذى هو اعظم اقليم الهند ثروة رجال يستأجرون انفسهم فى كل شهر بروبية اوروبيتين فقط ولا يعطى لهم شئ يقتاتون به زيادة على ذلك ولا يتأتى شراء الرقيق فى هذا الاقليم بثمن رخيص والانكليز وان كانوا دائما مجتهدين فى ابطال الجلبة متعللين بأن ذلك هو ما تقتضيه الشفقة والرأفة الا أنه كان الواجب عليهم أن لا يتشبثوا بما يأتى فى هذا الاجتهاد والحمية واذا صعدت فى النهر وجدت فى مدينة برّكبور بيت نزهة الحاكم وعدة عمارات اخرى تحت يد الاجانب وفى مدة الحرب التى وقعت فى بلاد الهند اقام تجار الانكليز الذين كانوا تحت حماية الدانيمرقة فى العمارة الدانيمرقية بمدينة سيرنبور وكان يأتى الى الدانيمرقة من طرف الانكليز الاذن والتفويض بالبيع والشراء والاخذ والعطاء فعاد ذلك عليهم بالثروة الجسيمة والغنى الوافر ولما انفسخت المعاهدة بين الانكليز والدانيمرقة اجتاز النهر جماعة من ضباط الانكليز واستولوا على اموال معاهديهم من الدانيمرقة الذين لم يكن لهم وقتئذ ظهير ولا نصير ولم يلحق الانكليز من ذلك خجل ولا استحياء ولم يخشوا منه معرّة ولا فضيحة ومن يومئذ لم تبق مدينة

سير نبور الادار اقامة الدعاة المبعوثين الى بلاد الهند فانشأوا فيها دار طباعة وطبعوا فيها الكتاب المقدس مترجما الى عدة لغات من لغات الهند ونشروه بتلك البلاد ولم يزالوا ينشرون ايضا كتبا اخرى باللغة الهندستانية والفارسية واللغة الهندية القديمة

واما مدينة شاندرناغور فهى واقعة على البعد من مدينة كلكتة بستة فراسخ ويتعذر عندها صعود السفن فى النهر فيلزم دائما حفر الحلجان حتى تكون الملاحة الى كلكتة ممكنة متيسرة ولا مانع أن طبيعة تلك الاراضى يؤول امرها الى أن تظهر على جميع المجهودات الصناعية فان هذا الجزء من بلاد الهند يشتمل على ارض كبيرة متكونة من رسوب الطين وتراكمه فى الشواطئ ثم ان ما عليه هذه المدينة من سوء الحال وسوء معاملة من بها من المستخدمين وارباب الوظائف يوقع فى الذهن أن الاسم الفرنساوى اى لفظ فرنساوى ليس له فى بلاد الهند كبير اعتبار ولا مزيد احترام ووقار فان مدينة كلكتة هى التى فيها الاخذ والعطاء وسائر المعاملات التجارية وقد كان قبودانات السفن منذ سنتين لم يزالوا مجبورين على تحرير اوراقهم فى مدينة شاندرناغور فكان يضيع منهم فى ذلك مصاريف كثيرة وازمان كبيرة

ثم ترتب فيها قنصل اونائب يقوم مقام القنصل فى تأدية وظائفه الا أن مزايا هذا النائب ليست متسعة الدائرة فلم يترتب على تنصيبه فيها كبير جدوى

فالواجب حينئذ عدم التعويل على هذه المدينة بل يلزم أن يكون فى مدينة كلكتة نائب مفوض فى جميع المصالح وأن يكون ذا خبرة ودراية عظيمة بتجارة الهند وان لم يكن من زمرة التجار فان ضرورة الاحتياج اليه فى قضاء المصالح تكسبه من المزايا ما يفوق به غيره ويلزم ايضا أن يكون له ماهية جسيمة ومرتبات عظيمة وأن يكون فى وسعه تأدية النيابة عن الدولة الفرنساوية على وجه لا يخل بشرفها ولا يرى بعظمها

ثم ان البقعة الواقعة فيها هذه المدينة مرتفعة وهواءها ملايم للصحة اكثر مما جاورها من المحال ودار الحكم بها متخربة البنيان وأسوار بساتينها آيلة للسقوط ولم يبق للدولة الفرنساوية فى هذا الجزء من بلاد الهند الا فرقة من العساكر الاسباهية تبلغ عدتها احدا وعشرين رجلا ومحكمة للنظر فى الدعاوى اول مرة ولقضاتها ورئيسها مرتبات لا تساوى مرتبات ادنى مستخدم فى وظائف الانكليز ولم يبق لهم ايضا هنالك الا بعض فدادين من الاراضى

الباب الثانى

فى ذكر السفر فى نهرى باغيراثى والكنك وذكر مدن مورشداباد وراجمهال ومونغير واصطبلات مدينتى غازيپور وبوكسار ومدينة بيناريس وهيكل سرمات وصنم مدينة بيثارى المسمى لات ومدرسة بيناريس وكتب اللغة الهندية القديمة التى بخط اليد ومدينة الاهاباد ومدينة كنبور وموسم راما وسحرة الثعابين المعروفين بالحواة والكلام على الپاندية وخسوف القمر وكيفية السياحة فى بلاد الهند ومصاريف السفر

فى نهر الكنك سفن من مراكب البخار تصعد فى هذا النهر من مدينة كلكتة الى مدينة الاهاباد وفى فصل الشتاء يضطر الانسان الى ركوب نهيرات ساندربند حتى يصل الى نهر الكنك الاكبر غير أنه فى وقت الامطار يمكن للمسافر بسبب فيضان المياه أن يسلك الطريق المستقيمة التى هى طريق نهرى اوغلى وباغيراثى وفى الغالب تجد الطرق لكثرة المياه مدة نزول المطر متعطلة غير مطروقة فان مراكب الهند لا يمكنها مقاومة التيار بل لابد من انتظار هبوب الريح وهى هنالك لا تكون الا فرتونات وعواصف شديدة فاذن يكاد أن لا يكون هنالك واسطة فى صعود

نهر الكنك فى هذا الفصل الامر اكب البخار فان هذا النهر
لفيضان مياهه بالامطار وذوبان الثلوج تياره شديد يجذب
كل ما يصادفه ويتكون منه فروع جديدة ويمتد كالبحر ثم ينحسر
فتزول به على حين غفلة قرى كثيرة واياالات وقد كان خروجى
من كلكتة فى العاشر من شهر يولية فشاهدت
هذه الامور المحزنة الأن شواطئ النهر فى هذا الوقت ألطف
منها فى غيره فانك ترى السهول قد اتسعت واستتر وجهها
بالحشائش والخضراوات النضرة وتجد بساتين الاشجار
المسماة منغيير والمعابد البيضاء والمساكن اللطيفة التى
يسكنها زراع النيلة والمدن والقرى الواقعة على شواطئ النهر
المذكور واطلالا وقرى متفرقة ورؤوس اشجار غرقى
منثورة كل ذلك ينشأ عنه مرأى متنوع ومنظر مختلف
فتارة تشاهد ما تنشرح الصدور لرؤيته وتارة ماله وقع
فى النفوس لعظمته واخرى ما يحزنك منظره ويسيئك مرآه
ومخبره وأهم ما رأيته من المدن فى اثناء سفرى فى ذلك النهر
الى مدينة بناريس هى مدن مورشداباد وراجمهال
ومونغير وباتنة ودينابور وبوكسار وغازيپور ولم
اجد فى واحدة منها ما يرغب فى الاطلاع عليه من آثار الهند
القديمة * فاما مورشداباد فهى مدينة اسلامية وبيوت

اهلها عبارة عن اخصاص متخذة من الاسل ونوع من الحيران يقال له بنبوس وألطف عمارة فى هذه المدينة قصر مبنى على شكل المبانى الافرنجية بناه النارات (وهو لقب للحاكم من حكام الهند) ولم يسكنه اصلا وكانت هذه المدينة قبل كلكتة كرسى حكومة الجمعية الانكليزية المسماة قمبانية ولم يبق من رونقها القديم الا طريق لطيفة جدا على شواطئ نهير هنالك وأرصفة وهى مدينة مهمة بالنسبة للتجارة وفيها ديوان جرك اربابه من الهنود تجمع فيه العوايد المضروبة على السياحين المارين به والعادة عندهم غالبا أن السياح لا يفتش ما معه من الامتعة والبضائع

واما مدينة راجهال ومونغير فهما واقعتان فى محل كثير الجبال والأحجات فتجد قريبا من مدينة مونغير صخور سلطانيا بج على احداها بيت صنم محلى بالذهب وعلى الصخور الاخرى المجاورة لها كثير من التماثيل المنقوشة على شكل معبودات الهند وقد منعنى من رؤيتها فيضان المياه وفى جبال هاتين المدينتين الوعرة كهوف يختلى فيها عباد الاسنيكية الذين نذروا انفسهم للدعة والبطالة ويقال لهم بلسان الهند سريا غوان (اى السعداء) فتراهم لصرف اوقاتهم فى التفكرات واشتغال بالهم بالمصنوعات كأنهم فى لجج

الغفلة منغمسون وفى اودية الغيبوبة تائهون وشعورهم قافة منفوشة شعثاء لعدم تعهدها وهم منبسطون من هذه الحالة راضون بها وبالجملة فلا يتصور العقل أن فى الوجود من يفوقهم فى صفة الكسل الذميمة التى بلغوا فيها الغاية

واما باتنة فهى مدينة ذات تجارة عظيمة وهى اعظم مخازن الافيون وليس فى شئ من منظرها او آثارها ما يرجحها على ما عداها من المدن الواقعة على ملتقى النهرين بانها هى المدينة القديمة التى يقال لها پاليبوثرا

واما غازيپور وبوكسار ففيهما اصطبلات خيول القمپانية الانكليزية فيربون الامهار فى بوكسار حتى تبلغ سنتين ثم ينقلونها الى غازيپور حتى تبلغ اربعا فاذا ارتفعت قامتها الى الحد المعين باعوا الواحدة منها بألف ريبة وما لم يبلغ منها ذلك الحد باعوه بخمسمائة وما كان فيه عيب باعوه فى المزاد وكل فلاح أتى اليهم بحجرة لطلب النزاء كافأوه على ذلك بخمسين ريبة لكن نتاجها يكون للقمپانية واغلب الفحول المعدة للنزاء من الخيول الانكليزية وبعضها عراب وبذلك استغنى الانكليز عن شراء الخيل من اسواق الهند وخيولهم جياد كرائم الا انها فى الغالب معيبة الساق

واما بيناريس فهى من مدن الهند المعتبرة وهى اعظم

مدينة يرغب فيها المتولع بآثار الهند القديمة فتجد فيها جميع حكايات القدماء محفوظة يرويها الخلف عن السلف وما بها من الآثار الاسلامية آخذ فى الاضمحلال والتخرب بخلاف الآثار الهندية فهى آخذة فى الصلاح والعمار وموارد النهر فيها المسماة بلسانهم غات عظيمة جدا وهى عبارة عن سلالم متسعة ينزل عليها من الاهالى من اراد الاغتسال فى ذلك النهر وفوقها قصور وبيوت ومساجد اسلامية وهيا كل هندية وبيوت المدينة المعتادة من خرفة بزخارف كثيرة وهى عدة طبقات فى كل طبقة منها اعمدة وفواصل وبالجملة فمنظرها على العموم يبدو لمن فى النهر من ابهج المناظر وانفرها

وفى تلك المدينة مقدار كبير من الهياكل وبيوت الاصنام المسماة باغود وفيها ايضا تماثيل ساذجية عارية عن الزينة يقال لها لنغاس يجلس عندها فقراء الهنود المعروفون بالدراويش ويترأى من حالهم انهم على غاية من الهدء والسكون وانهم مشتغلون بحواسهم وعقولهم فى النظر والتفكر فى شأن هذه التماثيل مع انهم متى رأوا دراهم صدقة اسرعوا اليها وانكبوا عليها وفى المدينة ايضا كثير من البرك والآبار المقدسة التى يعتقدون بركتها فهى وان كانت قذرة منتنة يأتى اليها العباد بقصد الاستحمام

وشوارعها

وشوارعها ضيقة جدًا فبعضها على جانبيه صفان من الدكاكين يوقد عليها فى المساء قناديل صغيرة وبعضها على جانبيه جدران كبيرة مظلمة تخلوها عن الشبابيك ويكثر بتلك الشوارع ازدحام الاهالى ويسمع فى سائر جهاتها قرع الطبول واصوات الطنابير والاغانى ويصادف المار فيها تارة دواكب دينية وتارة زفافا واعراسا واخرى امواتا يذهبون بهم الى النهر ويغنون وينثرون الازهار حولهم لاجل طرد الشياطين ولهم فى هذه الاحتفالات نشاط واعتناء عظيم حتى ان الانسان يظن انه دائما فى موسم لا ينقطع

وفى نواحى مدينة بيناريس هيكل سرمات وقد حفروا فى ارضه بقصد البحث عن الآثار فوجدوا عدة عظيمة من الاصنام محفوظة حفظا تامًا ولم يزل الى الآن منها بعض اصنام متفرقة حول هذا الهيكل وهى غير محكمة الصناعة الا أن الشكل الشهير الموجود فى صور هنود البلاد العليا معروف وممتاز فيها * والهيكل مبنى بآجر مغطى باحجار منحوتة ضخمة تعرف باحجار الآلة وهو واقع قريبا من بركة مباركة عندهم تسمى ترثة حولها اشجار يقال لها بانيان * وهنالك هيكل آخر على شكل الهيكل المتقدم ومعادل له وقد بحث فيه ايضا فلم يوجد فيه شئ

وفى الجهة الثانية من نهر الكنك تجد بمدينة رمناغار سراية رجا بيناريس اى والى هذه المدينة وهيكلا هندبا من الهياكل المتأخرة منقوشا بنقوش ردية لا تحصى واعظم الآثار العلية فى تلك الجهة هو الصنم المسمى لات بيشارى الواقع على البعد من مدينة بيناريس ببعض فراسخ حيث يوجد عليه كتابة منقوشة مع الاستطالة وحروفها غائرة فى الحجر جدا حتى ان من رآها على بعد ظن أنه يمكنه اخذ صورتها برسم لطيف ولكن لما كانت اطرافها قد بليت لتقادم عهدها كانت حروف الصورة المأخوذة منها غير جيدة الشكل وفى مدينة بيلات صنم آخر يسمى لات ايضا وهو من جنس المتقدم الا انه خال عن نقوش الكتابة بالكلية

ثم ان الدروس التى تقرأ فى مدرسة بيناريس السانسكريتية هى عين الدروس التى تقرأ فى مدرسة كلكته وانما الخلاف بينهما فى خصوص النحو * واللسان المتداول بين الناس بهذه المدينة مغاير للسان كلكته ولسان ماتورا وبندرابند والبراهمة يعرفون اللغة التى خصصها للديانة بريم ساغار بحيث انهم لا يتكلمون بها بل اغلبهم يتكلم بلغة هندستان اوردو * وكثير من اشراف الهنود بل وبعض السيخية يأتون الى

بينساريس بقصد تأدية العبادة والنسك وبعضهم يجعل فيها على طرفه اماما من البراهمة لاجل الصلاة

وفى تلك المدينة كثير من الكتب السانسكريتية المنسوخة باليد حتى انه يتيسر للانسان أن يحصل فيها من تلك الكتب اكثر مما يمكنه تحصيله فى غيرها من بلاد الهند وقد عرض على مقدار عظيم من المتون والشروح الا أنى طلبت منهم كتبا ويدا فلم يردوا على جوابا ولم يتيسر لى أن احصل منها الا كتابا يسمى پراتى ساكيا (وهى رسالة تتعلق بكيفية النطق بتلك الكتب) ولقلة ماعندى من الوسائط لم يتيسر لى تحصيل كتب كثيرة وانما اتيت معى بكتاب پراتى ساكيا المذكور وبنسخة طريفة من كتاب بغوات پورانا وكتاب وراهى سانهيتا وكتاب بغوات چيتا وشرحه وكتاب پاريساند يسجارا وبعض رسائل فى علم النحو وثمن النسخة الجديدة النسخ فى هذه المدينة هو الجارى فى قلقوطة ومقداره خمسمائة شلوكة اى ربية واحدة وهذا غير ثمن الورق الذى يدفع مستقلا قبل الشروع فى النسخ ومن سوء الحظ أن النساخ لا يعرفون شيأ من اللغة السانسكريتية فتجد الكتب التى ينسخونها كثيرة التحريف والغلط واما ثمن النسخ القديمة التى صححها الپانديتية فليس له حد معين بل هو

زائد زيادة مفرطة . وزيادة على ذلك اذا كان المشترى ملقبا بلقب الصاحب اوسياحا فلا يؤمل شراءها الا باغلى ثمن ولا يحوزها الا بعد مماطلة طويلة واما اذا فصل الثمن مع البائع وعالجه فى تعيين مقداره فانه لا يحصل منها شيأ بل لا بد له فى ذلك من الاستعانة بأحد الباندية واتحافه بهدية ولا بد له ايضا أن يقصد فى ذلك رجلا من المعتبرين فان الثمن يدفع قبل قبض المبيع ويكون المشترى بعد ذلك على خطر فى حيازة ما اشتراه وقد استصحبت معى مدرس الهيئة بالمدرسة المتقدمة وكان قد أحضره الى بعض لطفاء الضباط فكان هذا المدرس يصحبنى اينما توجهت لانه كان يرى كبار حكام مدينة بيناريس يقابلوننى بالترحيب والاكرام

واما مدينة ألاهاباد فهى واقعة فى ملتقى نهرى الكنك و يومنا الذى يشرف عليه حصن عجيب ويعتقد الهنود أن هنالك نهرا ثالثا يجرى تحت الارض يسمى نهر سارا سواتى ويزعمون أن هذا المحل اعظم البرياغاس قدسا وبركة (والبرياغاس اسم للاماكن المقدسة الواقعة فى ملتقى النهرين المذكورين) فترى الناس يأتون الى هذا المحل افواجا للاغتسال والحلق ويعتقدون أن كل شعرة سقطت فى الماء

علامة على أن صاحبها يمكث فى الجنة ألوفا من السنين وكانت ثمانية الانكليز اولا تأخذ عوايد من الزوار تضربها عليهم ثم لاحظتها نظرا الى أن ذلك مما يخل بالمروءة ومكارم الاخلاق اذليس ذلك الا مغرما مضروبا على ارباب الاوهام الفاسدة والعقائد الكاسدة * وتجد تحت حصن ألاهاباد فى كهوف مستطيلة اصناما يسمونها لانغاس وتماثيل على صورة الآلهة المعروفة باسم باروانى وفى صحن هذا الحصن صنم يقال له لات وهو ملقى على الارض وعليه من الكتابة نقوش كثيرة لا يمكن اخذ صورتها

وبالجملة فدبنا ألاهاباد و بيناريس هما محلان تحجهما الهنود ولا يوجد فى ألاهاباد شئ من الآثار القديمة الغريبة ولا شك أن الاسس المتينة التى بنيت عليها بيوت هذه المدينة كانت سابقا عليها مبان عظيمة ولا ترى عليها الآن الا اخصاص اردئية مبنية بالطين * وفى المدينة قبر عظيم حوله بستان وخان ظريف ، ويتعجب الانسان من كون هذه المدينة واقعة موقعا حسنا فى ملتقى نهرين عظيمين ولم تكتسب اهمية زيادة عما هى عليه الآن

وقد فاض نهر الكنك حين كنت بهذه المدينة فيضانا عربيا حتى تقطعت جسوره وانصبت مياهه فى نهر يومنا

من خلال السهول التى تفصل الحصن من المدينة فصار هذا الحصن كالجزيرة وانهدم السور العظيم الذى على نهر يومنا وكان هذا آخر حادثة من حوادث التخريب التى كنت أشاهدها منذ شهرين

وبينما كنت اتنزه فى اكناف تلك المدينة اذ ضللت عن الطريق فسألت رجلا من الاهالى وقلت له ما هذا النهر للذى يجرى أمامى فأجابنى بأنه نهر الكنك فسألته ثانيا لأتحقق من معرفة الطريق وقلت له اوليس هذا نهر يومنا فاجابنى قائلا انه يصير نهر يومنا لو أراد ذلك الصاحب وانما ذكرت هذه العبارة لتكون شاهدا على عبودية اهل تلك البلاد واسترقاقهم وعلى انه يعسر على المستفهم غالبا أن يجاب عما استفهم عنه باجوبة صحيحة فانهم يقصدون بجواب اسهل الاسئلة معنى خفيا ولا يخطر ببالهم أن السائل له رغبة فى الاستفادة عن سؤاله بالتفاصيل التى تظهر لهم انها مستهجنة مبتذلة بل يرون أن اجابته بما يظنون انه يحبه ويسره اولى من اجابته بالحقيقة فعلى الانسان أن لا يثق باخبارهم ولا يعتمد على افاداتهم الحالية بل يلزمه أن يستصحب معه احد المعتبرين منهم ليستفيد منه اخبارا صحيحة يوثق بها

واما

واما مدينة كنبور فهى اعظم المدن بعد ألاهاباد وفيها بعض آثار من آثار القرون المتاخرة غير مرغوبة وهى من المحيطات الواسعة العسكرية والمنازل المستحسنة الهندية من حيث كونها محلا للحظوظ واجتماع المؤانسة وفيها تياتر وموقعها ردىء كأكثافها وان كان نهر الكنك يرويها وارلمضى هذا القطر مسطوحة جدا فلا يزال الانسان فيها محاطا بالاعاصير والزوابع

وعلى البعد من مدينة كنبور ببعض فراسخ محل يزعم الهنود أنه مركز الارض فتراهم فى شهر اوقطوبر يعملون فيه مواسم عظيمة غير أنى لم يتيسر لى حضورها وانما رأيت مدة اقامتى بهذه المدينة موسم قتل الاخوين المسميين راما للعملاق المسمى روانا باعانة القردة لهما على قتله وكان الهنود اولا يلقون فى نهر الكنك بعد انقضاء هذا الموسم الشابين المنتخبين من اولاد الاعيان اللذين كانا ينوبان فى الموسم المذكور عن الاخوين المذكورين معتقدين انهما بتلك النيابة صارا مطهرين من دنس الذنوب فلم يبق وهيما على قيد الحياة لئلا يكونا عرضة لاقتراف الخطايا ثانيا واما الآن فليس ثم قاطع بانهم اقلعوا عن هذه الفعلة الشنيعة الناشئة عن اوهامهم الفاسدة والذى اراه أن الانكليز

لا يفضى بهم الترخيص فى الامور الدينية الى أن يقرّوا هذا الامر الفظيع ويغضوا عنه وينوب فى الموسم المذكور عن العملاق المسمى روانا تمثال هائل محشو بنيران صناعية وحرائق بارودية يحرق بها هذا التمثال * وصورة ذلك الموسم أن الشابين النائبين عن الاخوين المسميين راما يأتيان وعليهما ملابس فاخرة فى عربة يجرّها ثوران وكل منهما قابض بيده على قوس وعلى كتفه جعبة ويكتنف العربة اناس متزيون بزى القردة يصيحون صياح الفرح والمسرّة حتى يسمع لاصواتهم فى الجو دوىّ عظيم ثم يهجمون على التمثال ويرمونه بالحرائق من كل جانب وهو موسم عظيم مستحسن عند الاهالى وهم وان كانوا فى طرب وعربدة من السكر وسماع الغناء فى الموسم الا انهم لا يزالون محافظين على احترام من حضر من الفرنج للفرجة على ذلك الموسم

ورايت فى تلك المدينة ايضا حواة الثعابين قد قبضوا على ثلاثة منها أمامنا بواسطة تصفيرهم بآلة اشبه صوتا بالمزمار فان تأخرت الثعابين عن الحضور اليهم اخذوا فى السب واللعن وقرؤا عليها عزائم وكلمات شعوذية ومهما ابداه الانسان من الاحتراسات فى التحرز من غشهم وما يخيل له من فعلهم رأى منهم كيفية غريبة جدا حتى يعتقد انه غير

مغشوش وأن شعبذتهم صحيحة فانهم يجردون عن ثيابهم
ويعينون لهم المحل الذى تتلى فيه العزيمة لاجل اخراج الثعابين
ومتى قرؤها خرجت لامحالة * والثعابين هنالك تأوى الى
اصحن الدور بل والى داخل الاماكن ويقال ان نساء الهند
يؤلفنها حتى تأنس بهن ويتخذنها صواحب فى خلوتهن
ومكثهن مقصورات فى البيوت * ومن تلك الثعابين
مايسمونه كوبرا وهو اكثرها شكرا للصنيع مع انه
اشدها خطرا واعظمها ضررا ويألف الموسيقى فتراه عند
سماع صوت المزمار يرقص على حركاته مراعيا ألحان
نغماته واكثر ماتكون الثعابين والعقارب على امتداد اسفل
الجدران فلذا ترى من اقام ببلاد الهند عدة سنين يتحاشى
عن المشى بحذاء تلك الجدران حتى كأنه طبع على كراهة
ذلك والثعابين المذكورة تفترس من الناس ولكن ذلك لاينقص
من خطرها شيأ ويصادفها الانسان فى كل مكان فيجدها
فى الغيطان والطرق والردم والاطلال واذا اضطرت الى
الخروج من اجحارها التفت على بعضها وعند ماتحس بأدنى
حركة تمتد لاجل اللدغ واما الثعبان المسمى كوبرا فيبسط
قنبرته ويقوم ملتفا على شكل دائرة ثم يلقى برأسه الى الارض
وهو بطىء الحركة جدا بحيث يسهل التحرز منه واذا اتفق

أن انسانا مس ثعبانا سهوا التفت اليه حالا ليلدغه وقد اتفق لى انى كنت أتريض فى مزرعة نيله محصودة فوطئت ثعبانا فالتفت الى ليلدغنى وكان مشتبكا بحزمة من النيله فلم تصب لدغته الا سراويلى فجردت السيف وقطعته فاذا هو حية حبلى وقد اشتهر هنالك أن لدغ الحيات ولو كانت من ذوات السم لا خطر فيه

ثم ان قطر ألاهاباد هو جزء من الهندستان الاصلية وارضه خصبة جدا وزراعته جيدة فيما حول القرى والعيش فيه رخى والاسواق مستكملة اللوازم مع الانتظام وعلى البعد من القرى ترى ارضا بورا متسعة وهى ما يسمونه جنجل واكثر هذه الاراضى قابل للخصوبة الجيدة لولا ضعف الفلاحين وعدم تجاسرهم على التباعد عن قراهم خوفا من قطاع الطريق المتسلحين المسمين بلسانهم دكوات ومن الوحوش المفترسة

ولا يرخص هنالك للفرنج فى تملك الاراضى ويلزم لزراعة النيله اراض متسعة وفلاحوا الهنود يؤاجرون اراضيهم لزراع النيله سنة او سنتين وربما آجروا ارضا واحدة لزراعين فيقع بينهما عند الحصاد نزاع قد يفضى بهما الى القتال واكثرما يكون ذلك فى بلاد بيسورة

وفى هذه البلاد يصنع السكر وملح البارود والافيون بكثرة وشبانية الانكليز تحتكر الافيون وتستبدّ به وهو من اعظم فروع الايرادات الهندية

وحيث ان الخرطال لا يزرع عندهم سدّ الجلبان مسدّه فى علف الخيل ويجمعون الحشائش من الاراضى المسماة جنجل وفى بلاد بنجالة السفلى يزرع الارز بكثرة بخلاف اقليم الاهاباد الذى هو دونها فى الرىّ فان اكثر ما يزرع فيه القمح والشعير والدخن

وفى اكناف مدينة پاتنة يزرع كثير من البطاطس وغيره من النباتات ذوات الجذور والبقول المعروفة فى بلاد اوروبا وجميع بساتينهم لا تخلو عن زراعة ذلك

والخيول الهندية هى صنف صغير الجسم شديد العزم ولا تحتاج للتعهد والخدمة وكذلك صنف البقر فى تلك البلاد فهو أيضا صغير الجسم جدّا ولونه سنجابىّ وهنالك جاموس كثير يعتقد الهنود بركته وكذلك الثيران ويمنع فى القرى المنعزلة عن غيرها اكل لحم البقر * وأغنامهم فى الغالب سوداء وصوفها ردىء * وخنازيرهم السود التى تأتى اقاطيع اقاطيع لتتمرّغ فى قاذورات القرى ينفر منها الفرنج كما ينفر منها المسلمون * والكلاب تعيش مهملة فى المدن والقرى

وتذهب غالبا الى النهر لتأكل ما يرسو على شاطئه من الرمم فيعتريها بذلك داء الكلب

واما الابل فانها لا تكاد توجد فى هذا الجزء من بلاد الهند لان جميع الاحمال انما تنقل فى السفن بل توجد فيه الافيال التى هى فى بلاد الهند من علامات الثروة والشوكة لمن حازها

والطرق فى الغالب ظريفة جدا ومعتنى بشأنها واصلاحها مع صعوبة ذلك عليهم بما يطرأ عليها من الفساد الناشئ عن كثرة الامطار التى تعقب فصل الحرارة واليبوسة ويستخدمون فى اصلاحها من حكم عليهم باللميان وقد يصادف الانسان منهم طوائف كبيرة لا يصحبها فى قيادتها وحرسها الا رجلان او ثلاثة ومن الغريب أنهم مع ذلك لا يسعون فى الهروب فيلزم أن يكون عدم سعيهم فى الفرار انما هو لما استولى على قلوبهم من الرعب والخوف من الحاكم الانكليزى فلذا تراهم متى شاهدوا رجلا من الافرنج حيوه بوضع ايديهم على جباههم

وفى مدن الهند تجد الضباط والمستخدمين فى الخدم الملكية يسكنون بيوتا بعيدة عن المدينة لها طبقة واحدة ارضية وهى مستورة بالقش والحفافة وارضيتها مصنوعة من مواد

ترابيه

ترابية صلبة كأرض الجرين وسقفها مستور من داخله بقماش ابيض وسطحها مستور بالقش وبناؤها خفيف فلذا كانت تخربها الامطار والغسل الابيض فى اسرع وقت فهى دائما محتاجة الى الترميم والاصلاح * واما بيوت المدينة فهى فى الغالب مبنية بالآجر والحجارة وأعظمها يشتمل على عدة طبقات وعلى صحن فيه ماء لاجل جلب الرطوبة الى داخل المنزل * ويرى حول البيوت الظريفة بل وفى جميع المدينة كومات قاذورات وحفر مياه منتنة

وفى كل قرية من القرى سوق مستمر لا ينقطع منه البيع والشراء وخان ينزله السياحون وبعض تلك الخانات لطيف جدا وقد احدثت الانكليز وبعض اغنياء الهنود خانات صغيرة يأوى اليها السياحون وللسياح أن يمكث فيها اربعا وعشرين ساعة فان اتى بعد هذه المدة سياح آخر وجب على الاول أن يترك له محله وهذه الخانات الصغيرة على غاية من القلة والاحتياج الى لوازم التنظيم وادواته وهى فى الغالب واقعة موقعا رديئا بعيدا عن القرى والاسواق ولكن ليس فى ذلك كبير ضرر على السياح لانه فى العادة يستصحب معه ادوات السفر من خيمة وغيرها فاعظم نفع هذه الخانات انما هو بالنسبة للسياحين الذين يسافرون فى الدالكى

(وهو تختروان يحمله الرجال على ظهورهم) وفى كل قرية حاكم للضبط يسمونه ثانادار يعطى الخفر للسياحين فى مدة الليل وهؤلاء الحرس فى الغالب لصوص ولولا التجاء السياح اليهم لطلب الحراسة والخفر لسرقوا امتعته بلا محالة وليس بين القرى من العلائق والروابط الا القليل لان اهلها اما هنود اومسلمون اوهما جميعا وهو الغالب واذا كان اهل القرية هنودا فلسانهم يقارب اللغة السانسكريتية وان كانوا مسلمين فلسانهم يشابه اللغة الفارسية ومن عادة المسلمين قرى الضيف واكرامه بخلاف الهنود فانهم لايضاهونهم فى هذه الخصلة الحميدة وذلك ان لم يكن فيهم بالطبع والغريزة فهو ناشئ عن اوهامهم الفاسدة التى تمنعهم من اكرام الغرباء وخدمتهم ولا تبيح لهم أن يعيروهم شيأ من الادوات المنزلية من آنية طبخ وغيرها

ولا تخلو كل قرية عن البانديتية ولو واحدا وهم مجردون عن المعارف وليس عندهم من الكتب الا كتاب يسمونه ألمناخ وهو عبارة عن الزيجات والتقاويم ويظهرون للناس أنهم يقرؤن فيه مع أنهم انما يقرؤن شيأ آخر من محفوظاتهم فافهمتهم أنى عارف حقيقة الحال وانى لم اغتر بهذه الحيلة فاخذوا يضحكون من ذلك ولكن ليس عندهم دعوى ولا تكبر

ولا يوجـد فى خارج المدن الكبيرة احـد من البراهمة ارباب المعارف الا فى اورط العساكر الهندية حيث رتبت فيها قبانية الانكليز واعظا منهم ليعلمهم الصلاة ويحرضهم عليها

وقد اتفق ذات ليلة أن القمر خسف فسمعت شخصا من البراهمة يتلو دعاء فالحت عليه كل الالحاح أن يخبرنى بهذا الدعاء فما سمحت نفسه بذلك وبعد أن فرغ من دعائه اخذ يقص على الحاضرين بدون تعقل ولا رويه سيرة راهو الشهير الذى تتبع القمر قاصدا افتراسه انتقاما منه على كونه فضحه حين كان يسرق الطعام من ويكنو وكان هذا البانديتى على معارف كافية فكان يعرف خسوف القمر قبل حصوله فان علماء الهيئة من الهنود يحسبون اوقات الخسوف حسابا صحيحا والظاهر أنهم يعتقدون صحة خرافاتهم فتراهم عند حصول حادثة من الحوادث العلوية تلحقهم الحيرة والقلق لفساد أوهامهم وسوء عقيدتهم كالعامة فيعتقدون أن القمر يحل به وقت الخسوف شدة وضنك عظيم فترى كلا من الهنود والمسلمين يجثون على ركبهم ويبتهلون بالدعاء والتضرع لكن الهنود يقصدون بذلك التعجيل بانقاذ القمر من هذه الشدة والمسلمون يقصدون التحصن من ضرر الخسوف الذى هو علامة السخط والغضب

وماذكرناه لك على وجه الاختصار فى تخطيط هذه البلاد يمكن أن تعرف به سهولة السياحة هنالك فان ادوات النقلة متنوعة حيث تجد المراكب البخارية او السفن العادية لركوب نهر الكنك والصعود بها فيه ولكن الثانية هى الأليق بالمسافر الذى يريد الخروج على المدن ويحب معاينة البلاد وانما ينبغى له أن لا يسافر فى زمن فيضان مياه هذا النهر وتجد ايضا الدالك او التخترونات التى يحملها الرجال على ظهورهم ومسافة ما تقطعه هذه التخترونات ليلا ونهارا خمسة عشر فرسخا فصاعدا الى عشرين والسفر فيها لا يلايم الا من اراد النقلة من محل الى آخر بسرعة لان هذه الطريقة متعبة وثقيلة على المسافر وكثيرة الكلف والمصاريف ولا يمكن لمن استعملها أن يقف فى الطريق لرؤية البلاد * وللسياح ايضا أن يقطع المراحل الصغيرة فى التخترونات او على الخيل وينزل فى خيمة او خان من الخانات * واهل اوروبا لم يتعودوا على نزول الخانات بل ينقلون معهم خيامهم واثقالهم وبالجملة فالمسافر مخير فيما يلايمه من وسائط السفر المذكورة وركوب الماء فى اقليم بنجالة هو الانسب بالمسافر فان البلاد والولايات الواقعة على شواطئ نهر الكنك يرغب فى رؤيتها والاطلاع عليها ومبدأ السفر بالخيم مدينة الاهاباد

واعظم

وأعظم الخيام مايصنع فى مدينة فتاحپور الواقعة بين مدينتى الاهاباد وكنبور ويصنع منها ايضا كثير فى المدن الاخرى

وأهبة السفر المعتادة فرس ورجلان لخدمة المسافر احدهما يذهب للمحاقل الغير المزروعة ليجمع منها الحشائش ويقدمها للفرس ومن لوازم المسافر ايضا طباخ ومساعد لانه بمجرد احضار الغداء تاتى الحداء والاغربة والكلاب من جميع الجهات لتختطف ماعلى المائدة متى وجدت ادنى غفلة واهمال ومن لوازمه ايضا رجل لحفظ الامتعة والاثقال وميتور اى كناس وبستى اى سقاء ودهوبى اى غسال وفراش لنصب الخيمة وكل واحد منهم لايؤدى الا خدمته المنوط بها وكذلك جمل لحمل الخيمة الصغيرة وعدة جمال اوعربة لنقل الامتعة والاثقال * والابل اسرع فى السير من غيرها ولا يخشى معها بلل على ماتحمله من الامتعة عند عبور الانهر الصغيرة واذا اراد المسافر اخذ شئ من التصاوير والرسوم لزم له مساعد يعينه على هذا العمل والانفع له أن يستصحب منشئا اى كاتب سر من الفرس وباندبتيا يعلمه ألسنة البلاد لاسيما اذا اراد السياحة فى بلاد الهند بقصد الاطلاع على آثارها القديمة ومعرفة آدابها فان هذا الباندبتى

هو الذى يدله على الاماكن والآثار الشهيرة المرغوبة
ويترجم بينه وبين اصحابه من الهنود واما المنشئ فلا بدله
منه فى البلاد القائمة بنفسها لضرورة المراسلة الى رؤسائها
من الهنود ومكاتبتهم عند الحاجة ولا بدله ايضا من الحرس
مدة الليل والا سرقت امتعته بلا محالة

ولنذكر هنا مصاريف السياحة على سبيل الاقتصاد
والتوسط فنقول

	ربية
مصاريف الجمل فى الشهر	١٠
الجمال	٤
عربة تجرها ثلاثة ثوار	٣٠
امين الامتعة والملابس	٨
الطباخ ومساعده	١٥
الكناس	٥
السقاء	٤
الفراش	٦
الكولى (وهو الرفيق)	٦
خفر الليل	٨
السائس	٥
الجاسكوت (وهو نوع من الخدم)	٤

الغسال	٩
الباندیتی	٥٠
المنشیء	٣٠
	١٩٤

وقد یستغنی المسافر عن الجمع بین الباندیتی والمنشیء واذا زدنا على تلك المصاریف مصاریف الدلیل ونحوها من المصاریف الهینة فربما بلغ مجموع مصاریف الخدم الشهریة نحو مائتی ربیة ای خمسمائة فرنك واذا آثر المسافر رکوب التختروان على رکوب الخیل دفع فی کل شهر مصاریف حاملیها ثمانین ربیة ای مائتی فرنك ورکوب التختروانات فیه ابهة ورونق الآن مصاریفه اکثر من غیره

والاقوات فی تلك البلاد رخیصة جدًا ففی جمیع الاماکن الطیور الدواجن والارز واللبن والبیض والدقیق * ولا بد للانسان هنالك من طقم سفرة فیه نوع زخرفة ورفاهیة فان العادة فی تلك البلاد أن الانسان اذا دعی للغداء عند جماعة استصحب معه السکین والشوکة والملعقة والصحاف وحق الفلفل والملح لان ضرورة الانتقال وکثرة الارتحال حملت الانکلیز على التعوّد والعمل بهذه العادة المستحسنة التی تذهب عنهم الحیرة وتوفر علیهم المصاریف

واذا اراد المسافر الاقتصاد فى المصاريف بحيث لا يغرم مصرفا للمنشئ ولا باندتى ولا غيرهما ممن يستعين بهم على الاطلاع على تلك البلاد ومعرفة احوالها لم ينل ذلك الا وقد اضر بنفسه من حيث ما يصل اليه فى هذا المعنى من الاخبار حيث لا يخرج من ذلك على خبر صحيح يعتمد عليه واما ما عدا ذلك من المصاريف فهو امر عادى فالاوفق بالانسان أن يسلك فى ذلك المسلك الجارى بين الناس ولا يسلك فى معيشته مسلكا يخصه على حدته فان ذلك يوقعه فى الحيرة دائما و يضيع عليه الزمن وايضا اذا لم يسلك مسلك عموم الناس لم يعتبر عندهم اعتبار الصاحب اى لم يعدوه من السادات والاعيان بل الظاهر أنهم لا يمكنونه من السياحة فى البلاد المستقلة بحكم نفسها الا اذا استأذن الحكومة الانكليزية والحكومة الهندية وصدور الاذن متوقف على حسن هيئة المستأذن بحيث يكون دائما على هيئة تقضى بأنه من ارباب الشرف والاعتبار

وبالجملة فالذى اوصى به السياح أن يتبصر ويدقق النظر فى شأن مصاريف السياحة ولا يغتر بالتوهمات الباطلة التى يبديها له فى هذا المعنى اناس لم يسافروا الى تلك البلاد حقيقة وانما ذلك منهم مجرد وهم وتخيل وان كانوا فى الواقع

ونفس الامر من ذوى الاعتبار والوقار

(الباب الثالث)

فى الكلام على مدينة اغرا والمدفن المسمى تاجمهال وتحصن اغرا ومدرستها ومدينتى ماثورا وبندرابند وكريشنا واللباسات والقردة وغات بندرابند وهياكلها والاموات المطروحة فى الازقة وقراءة اللسان السانسكريتى وصعوبة تحصيل الشخوص المسماة مداليه والنقوش المرسومة على ألواح النحاس وعلى مدن ديج و بورتبور و غداوند و فتاحيورسكرى وعلى المنظر العام للبلاد المجاورة لمدينة اغرا وكيفية البناء والتصوير والنقش عند الهنود وعلى مدينة قانوجة ومن بها من البراهمة وبائعى المربات وعلى المداليات الكاذبة

لما انقضى فصل الامطار وانتهى فيضان الماء شرعت فى السفر ثانيا فخرجت من مدينة كنبور فى اواخر اوقطوبر بعد أن اقمت عدة اسابيع فى ضيافة بعض اصحابى ممن ركبت معه البحر سابقا وعادت ضيافته على بالمنفعة فرأيت منظرا بين مدينتى كنبور و اغرا من البلاد قد تغير دفعة واحدة فلم ار هنالك مايضاهى سهول بنجالة الانيقة ولاجبال راجمهال و مونغير و مرزابور ذات الغابات ولا المدن

والقرى التى تكتنفها اجمات النخيل واشجار الموز
ولا اخصاص الهنود الصغيرة المتخذة من ضفائر الخيزران
المغطاة بالنباتات والازهار التى تعلو وتلتف عليها بل وجدت
القرى فى تلك الجهة قليلة والبيوت مبنية بالطين وفى كل
وقت يصادف السائر فيها رمالا واراضى متسعة لا ينبت فيها
الا العاقول ووصلت الى مدينة اغرا وقت الاصيل عند
غروب الشمس فكان اول ما وقع عليه بصرى هو التاج محال
فلمسته من بعد ونصفه محجوب بالابخرة الجوية وهو عبارة
عن مدفن شيده الشاه يهان تذكارا لاحدى زوجاته
وهو واقع على شواطئ نهر يمنا وفيه منارات عالية تشرف
على ما حوله من البلاد التى هى عبارة عن اطلال ومقابر
يظن الناظر أن ارضها انقلبت وتخربت ويكتنف هذا
المدفن مسجد وبستان جيد الغراس وخان معد لنزول
السياحين فيه مجانا وجميع مقابر اعيان الهند بهذه المثابة
فهى جامعة لطرف من الفنون والديانة والظرافة والنفع العام
وليست كما تلهج به الالسن دائما انها آثار مباهاة ومفاخرة
غير نافعة * وطرق البستان ومماشيه مبلطة بالاحجار المتينة
وفى وسطه فسقية ذات نافورات تقذف الماء فى كل يوم احد
وبناء المدفن من الرخام الابيض * والمقابر وكذلك بعض

الجدران

الجدران من خرفة بقطع احجار متناسبة مختلفة الالوان على صورة ازهار مخترعة وبالجملة فاجزاء هذا المحل كمجموعه على غاية من اللطف والظرافة

ومدفن الشاه اكبر فى مدينة سكندرة واقع على البعد من اغرا بفرسخين وهو دون الاول فى الظرافة ويشتمل ايضا على بستان وخان ومن صعد على اعلاه رأى حوله من الخراب فضاء واسعا يبلغ مدى بصره

والانكليز يعملون اعظم مواسمهم فى هذين المدفنين ويجتمعون فيهما جميع من كان بمدينة اغرا من الفرنج وفى عمل هذه المواسم بجوار المدفنين اسوة باهل المشرق فى اخلاقهم وعوايدهم حيث يميلون الى مزج حظوظهم ومسرّاتهم بما يبعثهم على الاتعاظ والتفكر فى فناء العالم وزوال الدنيا ولكن بعد أن اصحاب هذه المواسم فى اوقات المسرّة والخلاعة يتفكرون فى غير مسرّتهم وفكاهتهم

وغير هذا المدفن من المحال الشهيرة بمدينة اغرا هو المحل المسمى موتى موجديد ومدفن ايتماد ايدد وليج المزخرف بتصاوير مخترعة مصنوعة من قطع احجار متناسبة مختلفة الالوان والحصن الذى كان دار اقامة الملك على حسب عوايد هذه البلاد واما كن هذا الحصن على غاية من الحفظ

وفى داخله صحن مربع يشتمل على مسجد من الرخام الابيض وقاعة حمامه المعدّ للنساء هى موضع مستور عن الاعين يصعب الدخول فيه وهى مزينة بمرآة صغيرة ذات اوجه عديدة وضعت هنالك لتنعكس فيها صور من اغتسل فى ذلك الحمام من النساء الحسان ولا يدرى هل كان الشاه يحضر معهنّ وقت فكاهتهنّ ومسرّتهنّ ام لا والحارس اخرس بالكلية وليس فى المدينة من المبانى ماله وقع فى النفس كهذا الحصن الا القليل سواء كان ذلك بالنظر الى داخله اوخارجه وهذا الحصن وان كان يظهر أنه حصين منيع الا انه بحسب الظنّ لا يمنع عساكر الفرنج من التغلب والهجوم عليه فقد استولى عليه سنة ١٨٠٣ من الميلاد اللورد لالك من غير أن يكابد فى ذلك مقاومة ولا معارضة غير أنه لسوء حظه اتلفت كال المدافع جدرانه اللطيفة وقبابه المذهبة

وفى مدينة اغرا ايضا مدرسة يتعلم فيها اللسان السانسكريتىّ والعربىّ والفارسىّ والانكليزى وقد اخبرنى مديرها أن هذه المدرسة السانسكريتية من الاحداثات الردية والترتيبات القبيحة لان كل من خرج منها انما يستعمل ما حصله فيها من المعارف فى اغواء الجهلة واضلالهم ولعله يشير بذلك الى

الشعبذيات المأذون بها للبراهمة ليستريحوا من كيد اعدائهم ولا اعداء لهؤلاء البراهمة الا من لم يوفهم ما اوجبته لهم الشرائع من وجوه البرّ والاعانة ومنشأ ذلك انما هو الترتيب لا الناس * والتلامذة هنالك يحترضون على تعليم الانكليزى والفارسى لانهم بمعرفة هذين اللسانين يتمكنون من التقلد بوظيفة من الوظائف الانكليزية

ومدينة اغرا كلها اسلام لا يوجد فيها شئ من آثار الهند الشهيرة ولكن اذا سافر الانسان منها مسافة يوم وصل الى ماثورا و بندرابند وهما مدينتان معدّتان لتعليم الآداب والاخلاق القديمة وكل شئ فيها ساذج باق على اصل الطبيعة اكثر مما فى مدينة بنارس فانهما كانتا محلا للحوادث التى وقعت من ويشنو فى صغره حين تشكل باحد تشكلاته الذى كان يسمى فيه باسم كريشنا (وهو من آلهة الهنود الخرافية وتشكلاته تسع مذكورة فى كتب الميثولوجيا) فله فى المدينتين عبادة مخصوصة واهلهما يشهرون وقائعه العشقية والحربية بانشادها والترنم بها وعقد المواسم لها ويطلعون السياحين هنالك على المورد المسمى غات الذى قتل فيه ويشنو الثعبان وعلى الشجرة التى كان يزمر فيها بالمزمار وكذلك الشجرة التى خبأ فيها

ثياب اللبانات * وبعض البراهمة يحكى هذه القصة فيقول ان ويشنو انقض فجأة على اللبانات وكن يغتسلن في الماء واخذ ثيابهن وصعد بها على شجرة ووارها فيها فدنا منه هؤلاء المسكينات وسألنه فى الثياب فطلب منهن أن يخرجن من الماء فلما خرجن وأردن أن يسترن عوراتهن بايديهن ألزمهن أن يضعنها فوق صدورهن على هيئة الصليب وقد يبست هذه الشجرة التى كان يتذكر بها تلك الحادثة ويوجد فى اغصانها اليابسة اشرطة مختلفة الالوان معلقة عليها دالة على ثياب هؤلاء اللبانات

وما فى مدينة بندرابند من الموارد المسماة غمات على غاية من اللطف فان اغلبها مسقوف وانفراجاتها المطلة على النهر منحوتة على شكل قباب وفواصل مسندة على اعمدة وهى محصنة القصور صغيرة تعرف بالكوجكات ومظللة باشجار كبيرة من شجر البانيان ومنتزهاتها انيقة تشرح الصدر وعلى شاطئ النهر محل كانوا يطعمون فيه القردة بما رتبه لها احد العباد وقد وجدته عند الاوبة مغلوقا الان فتور الحمية فى الديانة يسرى فى سائر المحال * والقردة هنالك تملأ الاشجار وسطوح البيوت حتى انهم فى ايام البلح يضطرون الى اقامة الحرس لحفظ النخيل لما أن هذه القرود معتودة على الاستلاب

والاختطاف

والاختطاف حتى انه يشق على الانسان أن يحمى غداءه من هجومها عليه بل لا بد له من مجانبة اذيتها ولو بادنى ضرر فقد اتفق ذات يوم أن رجلين من الضباط قتلا قردا فاشتد غضب الاهالى عليهما وارادوا الفتك بهما فما كان منهما الا انهما ركبا فيلا وقصدا أن يجتازا به نهر يومنا لكن ادركتهما المنية فغرقا فيه واهل المدينة يحكون فى ذلك حكاية غريبة فيقولون ان القرود نفسها هجمت عليهما فاهلكت الراكب والمركوب والانوار التى يعتقدون بركتها كثيرة هنالك حتى انها تسد الازقة والحارات وغذاؤها من حبوب يأتى الغلال فتدخل رؤسها فى قففهم لتأكل منها ولا تبالى بضربهم لها وبعضهم يتركها تأكل من حبوبه آمنة مطمئنة معتقدين أن عدم طردها مما يستوجب الاجر والثواب والسلاحف كثيرة فى النهر ويطرح لها الاهالى فيه ما تقتات به وبالجملة فالثيران والقردة والطواويس والحمام والديوك مقدسة عندهم يعتقدون بركتها فلا يذبحون منها شيأ وقد اتفق انى كنت اتمشى فى بعض الازقة اذ نظرت امرا مهولا وكان ذلك فى فصل الخريف وقت حصاد الدخن وهو انه كان قد وقع فى المدينة منذ بسير سقط وجماعة حتى صار الفقراء يأكلون الدخن مع الافراط والشراهة فنشأ عن ذلك

To: www.al-mostafa.com

حتى قاتلة فرأيت بعض المصابين بها فى النزاع وبعضهم قد هلك ورأيت الناس يمرّون من جانبهم ولا يلتفتون اليهم حتى اخذت الكلاب تأكل واحدا منهم ومن عوايدهم أن الميت لا بد نو منه الاقاربه الادنون وطائفة من الرعاع السفلة معتدة لحمل الاموات

وفى مدينة بندرابند زيادة على مافيها من الغاتات (اى الموارد) هيكلان ظريفان جدّا مبنيان باحجار لونها كلون الورد أحدهما على شكل الصليب اليونانى وهو أغرب آثار العمارات الهندية وتجد فقراء الهنود يجتمعون حول الهياكل ويقرؤن عندها باعلى اصواتهم مع نوع غناء وترنم ويقطع النظر عن ذلك وعن تطويل وقفهم على حروف الغنة لايظهر فى نطقهم مخالفة للنطق المعتاد فى مدارس فرانسا الكبيرة وعند سماعهم يدرك الانسان أن مايقرؤنه موزون متناسق * وليس الامر كذلك فى مدينتى كلكتة وبيناريس ولما كان الفقراء المعروفون بالدراويش لايتكلمون الانادرا وقل أن فهموا مايقرؤنه وكان الاولى أن يقال ان قراءتهم انما هى من محفوظاتهم ومن الآثار التى يرويها الخلف عن السلف شفاها الا أنهم يقرؤن فيما بايديهم من الكتب كان الظاهر أن مايسمع منهم هو النطق الطبيعى

الخالى

الخالى عن التصنع وقد تحيلت فى تحصيل كتاب من الكتب الصغيرة التى يقرؤن فيها فوجدته لا معنى له بالكلية

والنطق باللسان السانسكريتى يختلف باختلاف البلاد ولكنه يتحد فى مدة الوقف على حروف الغنة وسبب الوقف بهذه المشابة على تلك الحروف القليلة الترنم هو فى غاية الوضوح لمن عرف صعوبة العثور على الكلمات المحرفة عن اصلها بسبب قواعد اللغة الجديدة المسماة ساندى فاذا اراد الخوجة أن يظهر عدم الحيرة فى القراءة جعل لنفسه فسحة يسبر فيها الكلمات ليحرر المحرف منها وبعد عثوره عليها يسرع القراءة حتى يصادف حرفا آخر من حروف الغنة فيقف عليه ثانيا وهذه الطريقة الغريبة فى القراءة تضر ضررا عظيما بمحاسن الاشعار السانسكريتية اللطيفة فلذا كان البانديتية الذين هم المعلمون للسان السانسكريتى اذا عرفوا من قبل قطعة من الشعر حرروها وافرغوها فى قالب حسن مقبول حتى يزول عنها عيب النظم ورداءة التركيب

وكان عندى فى شأن مدينة ماثورا اخبار تخصها فلذا اعتنيت بملاحظة منظرها واكنافها فاذا بلادها كثيرة الرمال وتفيض عليها المياه فى فصل الامطار حتى تكاد تغمها وتجد حول المدينة كيمانا من الآجر وليس هنالك شئ من الآثار

والرسوم المهمة وقد بحثت عن القطع المسماة مدالية فلم افز منها بشئ بخلاف الانكليز فان كثيرا منهم يجمعون منها جملا عظيمة لان السياح الذى يمرّ بالبلاد مجرّد مرور لا يتأتى له أن يطمع فى مضاهاتهم بحيث يكون عنده من الوسايط وقوة التأثير ما يعادلهم به فانه زيادة على ما يبذلونه فى ذلك من الاموال يستعملون فى البحث عن تلك القطع خدما متعودين على هذا العمل لا يظهرون منها شيأ لمن يسألهم عنها ولما كان حكام تلك البلاد يعاملون اهلها بالعسف والظلم منذ مدّة طويلة كان الاهالى الى الآن لا يخطر ببالهم أن هنالك حكومة قوية عادلة فلو فرضنا أن الهنود يملكون من هذه القطع مقادير كثيرة لما اظهروها لارباب الحكومة الانكليزية ولا لمن يلوذ بهم وقد تعذر علىّ ايضا تحصيل الرقوم المنقوشة على ألواح من النحاس واما ما وجد منها الآن فمن المعلوم انه وجد بالصدفة والاتفاق حين حفر الآبار والغدران او حفر اسس المبانى والعمارات

وجميع اكناف مدينة اغرا يرغب فى الاطلاع عليها فترى هنالك مدينة دييج التى بها اعظم سرايات الهنود وألطفها ومدينة بورتيور الشهيرة بمقاومة حصنها للانكليز ومدينة غداوند التى فيها بركة مباركة لطيفة جدّا يسمونها

ترثة وكل شئ فى هذه المدينة هندى فتجد فيها كيفية معيشة البراهمة كما هو مسطور فى كتاب مانو ودواوين الاشعار القديمة غير أن البحث فيها عن شئ من العلوم مما لا طائل تحته فان البراهمة لا يفقهون ولا كلمة واحدة من الكتب التى يتصدون لنسخها بل ربما كانوا لا يحسنون قراءتها وقد قابلت منهم رجلا بين مانورا و بندرابند كان يحرس معبدا صغيرا هناك فسألته هل تعرف اللسان السانسكريتى فأجاب بداهة وقد استغرب السؤال ماذا اعرف لا اعرف الا الاكل

وعلى البعد من مدينة اغرا بستة فراسخ مدينة اسلامية يرغب فى الاطلاع عليها يقال لها فتاحبور سكرى واعظم ما فيها من الآثار والمبانى المرغوبة صحن كبير مربع فى داخل مسجد يشتمل على مدفنين لطيفين بنى احدهما تذكارا لولى عظيم كان قد دعا لاحدى زوجات الشاه المسمى اكبر فحملت ببركة دعائه وابواب مدخل هذا الصحن على احسن شكل من اشكال البنيان وهناك ايضا مبان اخرى صغيرة لطيفة الاجزاء مقبولة الشكل ظريفة المنظر وكلها مبنية بالاحجار الوردية اللون وبجانبها تجددت عدة مساكن تكونت منها المدينة الموجودة الآن المضروب عليها سور يظهر انه

لم يكن من قديم الزمان مضروباعلى سرايات الشاه وكان هذا السور فى ايام الشاه اكبر عبارة عن خلوة لطيفة يدع فيها نساءه حين يسافر للغزو * ومدفن التاج جهال انما بنى تذكارا لامرأة فماذا ترى بعد ذلك فيما يقال فى حق المشارقة من الحط والتشنيع عليهم ووصفهم بالحماقة على كونهم يحجزون نساءهم فى البيوت و يمنعونهن من الخروج

وقد حصل فى مدينة بيور قيام وفتنة منعتنى من رؤية تلك المدينة التى هى على ما يقال من المدن التى يرغب فى مشاهدتها والاطلاع عليها فمكثت فصل الشتاء بتمامه فى مدينة اغرا

ومثل هذا القيام الغير العام يحصل غالبا فى بلاد الهند فيبادر الانكليز الى اخماد ناره حتى تسكن الفتنة فى اسرع وقت وهو يدل على قلة صبر الرؤساء من الهنود وعدم تجلدهم لتحمل مشاق احكام الانكليز وعلى أنهم بمعزل عن السياسة وحسن التدبير فلذا كان يكفى فى قمعهم الاى اوالايان من العساكر الانكليزية وللانكليز هنالك جيش عظيم تفتخر عساكر الهند بالانتساب اليه والانتظام فى سلكه والانكليز يحترمون آلهامهم الدينية و يصرفون لهم ماهياتهم بالترتيب والانتظام و يختصون بايرادات الهند وتجاراته وهم آمنون

على

على ذلك لحسن ادارتهم فى هذا المعنى فلا تجد من الهنود من يتضرر من الحكم الا الفلاحين الا أن غيظهم لا يخشى خطره وبالجملة فكان الاوفق بهم أن ينتظموا امن رؤسائهم من الهنود الا انهم لا يريدون اولا يتجاسرون أن ينهوا ظلامتهم و يبثوا شكواهم من رؤسائهم الى ارباب الحكومة الانكليزية وان كان هؤلاء الحكام دائما مستعدين للذب عنهم والاخذ بناصرهم

واهل مدينة اغرا يتكلمون باللسان المسمى هندستان اوردو وهو لسان اغلب كلماته فارسية و يتكلم فيما حولها بلسان يسمى هندستان بخا وفى هذا اللسان كثير من كلمات اللسان السانسكريتى وليس له فى النطق به كيفية معينة ولا طريقة مخصوصة فمن ثم كان يعسر على الانسان أن يقف على الحقيقة و يفهم الغرض المقصود من هذه اللغات المختلفة بل كان يعسر ذلك ايضا على من صحبنى من الهنود فى اسفارى وارتحالى من بلدة الى اخرى

وصلاح الزرع فى ناحية اغرا متوقف على امطار الصيف الدورية فان احتبست عنهم تلك الامطار امحلوا وجدبت ارضهم وقد وقع فى السنة التى مضت قبل وصولى الى تلك البلاد قحط مهول تعذر على الحكومة مع اهتمامها

منع اتلافه ودفع افساده فكنت ترى جميع الغيطان والفلوات مملوءة بجماجم الآدميين وعظامهم * ولولا أن في كل غيط بئرا لما امكن تحصيل شيء من الارض وكيفية بناء هذه الآبار هي انهم يرصون على سطح الارض صفوفا من الآجر فتغور في الرمل بنفسها حتى تستقر على الارض وتثبت منها على قرار مكين واغلب تلك الآبار ردىء المياه ومن مدينة كنبور تجد البلاد في تلك الجهة اقل في الزراعة من بلاد بنجالة السفلى وليس في منظرها ما يسر الخاطر ويجب الناظر فان مياه نهر جومنا تترك السواحل المتسعة بعد انحسارها عنها قفرا يابسة فيكثر فيها العاقول المسمى عندهم جنجل ولا ترى هنالك الا اطلالا ورسوما من المدن والقرى والبيوت والمقابر الاسلامية والبرك والآبار المهجورة ولا يهتم الهنود بتعمير شيء من ذلك او اصلاحه ولا يتممون ابدا عملا ابتدأه غيرهم اما الفساد اوهامهم او لكبرهم واعجابهم بأنفسهم بخلاف بنجالة السفلى فان ما بها من الرسوم والاطلال يستره ما يخرج بارضها من النباتات الكثيرة بل تجد في الغالب ما يكتنفها من الاشجار اللطيفة يكسبها نضارة ومنظرا بهجا يبعث الناظر على اقتراح الشعر واما البلاد العليا فترى فيها الآثار القديمة مكشوفة لا يسترها شيء

من

من النبات بل هي تزيد قبح منظر تلك البلاد وبالجملة فمن مدينة اغرا ومدينة دلهي لاترى الامنظر حزن واكتئاب يدل على الدمار والخراب

ورجال هذه الجهات طوال شداد حسان الخلقة وهم في السواد دون اهل بنجالة السفلى وقد سافرت غير مرة على التختروان فيما بين مدينتي كنبور ودلهي فكان حملة التختروان يقطعون في سيرهم مع الجرى اربعة فراسخ او خمسة وقت اشتداد الحر في النهار ويشربون الماء على الدوام ولا يأكلون مدة النهار الا حفنة من الجلبان اليابس بدون طبخ وعساكر الانكليز تجمع العساكر من اهالى البلاد العالية فيحضر اليها كثير من الناس ليكتب في زمرة العسكر لكن لكثرتهم لاتأخذ منهم الا من كان طويل القامة ولهؤلاء العساكر في المشى خفة وشمم فهيئتهم في ذلك مباينة للهيئة العنيفة التي عليها عساكر الانكليز وليس ثم الطف ولا اجل من الفقراء الطوال الذين يمشون عرايا متجردين عن الثياب وليس هنالك ايضا من بضاهيهم في لطف الصورة والقامة ولا يدرى كيف هذه الصور الحسان لم تأخذ بالباب المصورين وتحملهم على أن يحذوا حذوها في صناعتهم وشكل المباني الهندية زيادة على كونه متأصلا عندهم

هو ايضا على غاية من اللطف والطرافة بخلاف فن النقش والرسم فانه لم يحصل له هنالك تقدم اصلا بل معرفتهم فيه هينة جدا ومع ذلك لهم مزيد اعتناء بالبحث عن المنقوشات والمرسومات فتجد بيوت آحاد الاهالى منهم مملوءة بها ولهم ايضا اعتناء باهل هذا الفن حيث لا ينفكون عن ترغيبهم على الدوام ولنذكر لك هنا أن معبودات الهنود لها فى التصوير اشكال مخصوصة لا يتعداها المصورون وهى اشكال بشعة المنظر غير متناسبة لها عدة رؤس وعدة اذرع فرؤسها رؤس افيال واجسامها اجسام طيور وهى اعظم ما يعتنى بتصويره المصورون على الدوام وهذه الاشكال البشعة الخالية عن الاحكام والتناسب واللطف هى دائما سبب فى فساد اذواقهم وقلة تميزهم

واذا تنحيت قليلا عن الطريق الموصلة من مدينة كنپور الى مدينة اغرا صادفت مدينة قانوجه القديمة التى كانت سابقا تختا لدولة هندية ذات شوكة ورأيت موقع المدينة الجديدة يكتنفه من سائر الجهات تلال متسعة فيها طوب من الآجر وهو من آثار المدينة القديمة وهنالك ربوة عليها صحن مربع حوله اعمدة ليس عليها اثر شئ من التماثيل وانما المرغوب من آثار تلك المدينة نقش على صورة الهيكل

الهندى الموقوف على جميع الآلهة التى يعبدها الهنود والمدينة المذكورة قذرة وليس فى آثارها ما يستحق الطلاوة والبهجة التى تظهر على صورتها فى الرسم والتصوير وهى واقعة على ربوة صغيرة يجرى فى اسفلها فرع من فروع نهر الكنك صافى الماء عذب المورد وحولها خمائل اشجار ومجارى سيول عميقة كانت فى سابق الزمان ماوى للصوص الذين كانوا يلتجئون الى اراضى الملك اودة فيجدون بها ملجأ مأمونا ولم يزل هذا الموضع الى الآن له شهرة رديئة وسيرة قبيحة وربما عثر فيها احيانا على شخوص قديمة وهى القطع المسماة مداليات ولما رأى البراهمة أن السياحين يرغبون فيها ويبحثون عنها صاروا يصنعون على شكلها ويعرضونها عليهم ويصبونها بماء الورد والحلوى ولغباوتهم يعرضون منها على السياحين ما كان جديدا شديد اللمعان لقرب عهده بالصناعة ويدعون انها شخوص قديمة وجدوها فى اعماق الاطلال وهم اصحاب معروف يودون مصاحبة السياح فى جميع جهات المدينة ويعترفون له بالمنة ويشكرونه على ما يعطيه لهم من نقود الريبات

وقد احسن الانكليز قراى فى جميع سياحاتى وقابلونى بالترحيب والاكرام بحق انى لا اقدر أن افصح عما يصدر عنهم

فى ملاقاة النزيل من الاخلاص والمعروف والترحيب والبشاشة فان هذا مما تقصر عنه العبارة وانما اتذكر ذلك دائما تذكر الشاكر ولا انسى صنيعهم فى الماضى ولا الغابر

(الباب الرابع)

فى ذهابى الى مدينة دلهى وزيارتى فيها للورد الحاكم وذكر الجنرال وتورة والمبادرة بالسفر الى لاهور وعبور نهر سوتليجة وذكر كابورتيلة ولصوص الليل وزيارتى لسردار كابورتيلة ووصولى الى لاهور واجتماعى بجناب الملك رانجيت سنغ وذكر الالايات المضبوطة على منوال الضبط الفرنساوى وبيان نظام الادارة فى پنجاب وماجمعه كل من الجنرال كورت والجنرال وتورة من المداليات وذكر الپانديتى الاعظم الذى بمعية رانجيت سنغ

قل أن يحتاج السياح لاستكشاف امور جديدة فيما تحت حكم القمپانية الانكليزية من البلاد التى يسهل عليهم استكشاف ما فيها واستخراجه فان جميع بلاد الهند يقيم بها مدة ثمانية اشهر مهندسوا الاوارجة الذين يسهل عليهم اختبار البلاد ورسم ما فيها من الآثار الشهيرة ولوهينة

ويبينون للناس التفاصيل الشافية فى الجغرافية والارشيولوجيا (اى علم الآثار القديمة) فلم يبق اذن على السياح الا معاينة ما هو معروف لا استكشاف شئ مجهول ولا ريب أن هذا الاختبار وان عظمت مرغوبيته لا يصل فى ذلك الى درجة اختبار البلاد الجديدة والاطلاع عليها فلذا كانت جميع آمالى وجل الغرض من سياحتى انما هو لأجل بلاد لاهور وكشمير وكان اللورد الحاكم اذ ذاك فى مدينة دلهى فسافرت فى اوائل شهر مارث قاصدا زيارته واستئذانه فى الذهاب الى كشمير غير مكترث برانجيت سنغ فما كان الذ خطابه واعذب كلامه حيث وجدت فيه ما حملنى على الوثوق بحمايته ومساعدته وقد اتفق أن الجنرال ونتورة قدم وقتئذ الى مدينة دلهى فالتمس منى القماس الاحباب أن يقوم بجميع ما يلزم لى من الخدم وقال لى اذا التقينا فى لاهور لم تحتج الى شئ اصلا حتى تيقنت انى اذا وصلت الى هذه البلاد قوبلت فيها بالترحيب والاكرام حيث كنت معتمدا فى ذلك على حماية الدولة الانكليزية ذات الشوكة القوية ومعولا على ما وقع للسياح يا كيمونت من النصائح والاعانات الجزئية التى لاجلها اطنب فى مدح الجنرال الاردو ولما ذهبت لاستأذن

اللورد فى المسير قال لى اذهب الى موسيو تورانس كاتب سرّى فوجدته مع وكيل دلهى يرتب معاشا لأمراء الهنود الذين سلبت منهم املاكهم واقطاعاتهم فكنت أسرّ كلما سمعت هذا الكاتب الشفيق يقول رأفة بهؤلاء الأمراء ويكرّر ما معناه مساكين مساكين

ثم انى خرجت من مدينة دلهى مستعجلا فتركت فيها الخيام والاثقال وركبت على بريد الدالك وهو التختروان الذى يحمله الرجال كما تقدم فتقابلت فى مدينة لوديانة مع الخواجة وينيه وكان راجعا من رحلته الثانية الى بلاد كشمير فقص علىّ قصصا وحكايات عظيمة فى شأن سخاء حكومة لاهور وكرمها وحقق عندى أنى لا احتاج فى سفرى الى شئ واعاد علىّ الجنرال ونتورة التماسه الاول فى شأن المودّة والخدمة فلذا لم افكر فى الاحتراس من عوارض السفر بالتأهب والاستعداد بل لمزيد وثوقى بما سمعت اجتزت نهر سوتليجة فى الخامس عشر من شهر مارث سنة ١٨٣٩ من الميلاد فلم اجد شيأ مما وعدت به وعدا مؤكدا بل طفت جميع تلك البلاد وانا فى اسوء حالة واحقر اهبة وربما نزلت على امطار غزيرة فاضطررت بها الى الالتجاء الى اماكن رديئة حقيرة مملوءة

بالقمل وغيره من الحشرات المؤذية * ثم ان اقليم بنجاب زيادة على ما فيه من الانهر الخمسة الكبيرة يرويه ايضا عدة جداول صغيرة لا تخاض فى زمن ذوبان الثلج * وزراعة هذه البلاد جيدة فيما حول القرى والضياع وقد رأيت القمح فيها وهو فى سنابله والخشخاش قد ازهر ويحصد الزرع الذى فى اكناف مدينة اغرا فى اواخر شهر مارث فهو سابق على الحصاد فى بنجاب باكثر من شهر وهذا التفاوت الحاصل فى مزاج الهواء ليس منشأه مجرد اختلاف العرض بل هو ناشئ ايضا عن كثرة المياه التى تروى ارض بنجاب

ثم نزلت فى مدينة كابورتيلة وسكنت منها فى سراية كبيرة ذات اعمدة وسدود مسطوحة للزرع والغرس وآزاج واماكن متسعة ذات شبابيك وكانت غير مسكونة واظنها لا تسكن اصلا فانها فى الحقيقة من اغرب عمارات الهند وذلك انى لما سكنتها وجاء الليل وكان الوقت اذ ذاك صحوا والقمر على غاية من الانارة رأيت اشعة نوره تتلاعب بين الاعمدة حتى كأنه يخرج منها كل طرفة عين خيالات يرجف منها القلب ويفزع وفيها ايضا امور اخرى يخاف منها فانى بينما كنت فى النوم اذ أحسست أن شيأ يؤخذ من

تحت رأسي وكان هذا الشيء هو المحفظة الصغيرة التي كنت
اكتب فيها تسويدات الرحلة فظننت اني احتلم فلما اصبحت
وجدت المحفظة في غير موضعها وفقدت بعض اشياء من
امتعة الرجال الذين كانوا معي في السفر ولم اقف لها على اثر
فعرض علي السردار حاكم البلاد أن يدفع لي ثمن الاشياء
المسروقة وحتى كان للانسان حظوة وقبول عند حاكم
من حكام تلك البلاد عادت عليه السرقة بالمنفعة العظيمة فانه
يدفع له اكثر من قيمة المسروق وقد كنت ذهبت لاقابل هذا
الحاكم فاذا هو مفرط في الغلظ وذلك عند الهنود من صفات
الجمال الممدوحة اومن شعار الاعتبار والوقار لان السمن
عندهم علامة على اليسار والاقتدار بخلاف النحاف فانهم
عادة صعاليك لا يقتدرون على تحصيل الاقوات الجيدة
والاطعمة الطيبة بل يشدون احشاءهم لئلا تضرب بهم المسغبة
وكان ذلك اول مرة رأيت فيها ديوانا هنديا فتعجبت
مما رأيته فيه من المخالطة بين الامير واتباعه وبقية الحاضرين
على اختلاف درجاتهم فاني وجدت هذا الامير ووزيره
واصاغر الاتباع جالسين جميعا على الارض في اودة واحدة
وقد ابدى هذا الوزير ما لا مزيد عليه من الرغبة حين اطلع
على ما في رحلة بورنس من التصاوير والرسوم وكنت

استصحبت

استصحبت هذه الرحلة معي الى بلاد الهند ولم يلتفت الى ما كان يرد عليه من مكاتبات المصالح ولا الى اوامر سيده وطلب مني اهل الديوان أن آتيهم بعدة اشياء ليطلعوا عليها فأخذوا نظارة صغيرة من النظارات التي كانت معي ولو طلبوا ازيد من ذلك لما قدرت على الامتناع فالحمد لله على هذا التأديب الذي لم اغرم فيه اكثر من ذلك فعلى السياح أن لا يطلعهم على ما تسمح به نفسه فانهم لا يتحاشون عن طلبه واخذه * ثم ان بعض اراضي هذا الحاكم واقع على الشاطئ الآخر من نهر سوتليجة والفضل للانكليز عليه حيث حموه من اقتيات رانجيت سنغ وتعديه على اراضيه فلذا كان يظهر منه أنه يحبهم ويميل اليهم

وكان وصولي الى مدينة لاهور في الحادي والعشرين من شهر مارث فأقمت فيها مدة لم اقابل الملك ثم بلغني ذات يوم عن حين غفلة أنه يريد مقابلتي فقابلته على البعد من المدينة بفرسخين ولم تكن هذه المقابلة عظيم شيء بل لحقارتها حملتني على أن اسيء الظن بالابهة والرونق المشرقيين ثم انني اهديت اليه بوصلة (بيت ابرة) من القضة واحدى عشرة قطعة من الذهب ويدفي للانسان اذا اهدى هنالك مثل هذه

الهدية أن يستريده بساتر عند تقديمها ولما كانت عادة الهنود أنهم لا يلبسون القفاز فى ايديهم كانوا اذا قدموا هدية جعلوها فى طية من ثيابهم وكان هذا الملك جالسا على كرسى ذى مساند بين احد علماء الباندية وابن الوزير وكان الوزير نفسه جالسا على الارض والافرنج هم الذين احدثوا عندهم عادة الجلوس على مثل هذه الكراسى فى دواوينهم وعودوهم ايضا على أن يمشوا على البسط النفيسة بالنعال المتوحلة ورأيت الملك صامتا يظهر عليه أنه حزين لكن لم يكن ثم شئ يدل على قرب اجله ولما اخذ البوصلة نظر اليها وهزها هزا عنيفا فظهر لى أنه لم يفهم فيها شيأ ثم انهم سألونى عن وظيفتى فى فرانسا فأجبت بأنى وكيل من وكلاء الدعاوى فى المحكمة وحيث انهم لم يترجموا هذا اللقب ترجمة صحيحة سألونى ثانيا فقالوا اى بلاد كنت تديرها فى فرانسا وهل فى وسعك أن تحكم اقليما فما كان منى الا انى حافظت على الجد ولم اظهر ادنى شئ يشعر بالاستهزاء بهم لاقتضاء الحال هيبة هذا المجلس وتوقيره * ولا تدرى الهنود ما معنى الارساليات العلمية لأن كل شئ عندهم من قبيل السياسة حتى ظهر لى انهم لم يثقوا كل الوثوق بما ابديته لهم من الاغراض الحاملة لى

على

على السياحة فى بلادهم بل كان عندهم نوع ريبة فى ذلك
ثم اراد الملك أن يقضى الحاجة فأتى له فى الديوان بأناء
من المعادن فاكتفى فى التستر باستدبارنا وقام له عند
ذلك جميع الحاضرين اجلالا له وتعظيما حتى فرغ
من قضاء حاجته
ثم اذن لى فى الانصراف واعطانى مايعطى عادة للسياح وهى
كسوة التشريف المسماة بلسانهم كيلات وهى عبارة
عن شالين خلقين بعتهما فى السوق بسبع روبيات
(اى سبعة عشر فرنكا) وامرلى بصرف ثمانين ربية
واحدى عشرة صحفة من صحاف الحلوى عند وصولى
الى كاشمير واخذت منه ماهو أهم عندى من ذلك وهو
تذكرة السفر الى هذه المدينة ويقال لهذه التذكرة
عندهم پروانة ثم حييت هذا الملك الهرم وفارقته
وانصرفت ولم اره بعد ذلك
ثم ان مدينة لاهور تظهر للناظر من بعيد انها ذات منظر
لطيف لكثرة قبابها المذهبة فاذا دخلها لم ير الا بيوتا قذرة
وأزقة ضيقة فى وسطها جدول ماء منتن ويحيط بها خندق
واسوار وليس حولها الا قاذورات يتمرغ فيها خنازير سود
يبغضها كل من المسلمين والافرنج وبالقرب من المدينة محل

يقال له انارکالی وهو مسکن کل من الجنرال ونتورة والجنرال الارد وسهل متسع لاجل الرياضة ومنازل للعساکر وبيت نزهة کان للجنرال الارد وهو الآن مدفنه وليس فی آثار المدينة القديمة شیء من الامور الجليلة الخطيرة بل هی بشعة المنظر لما فيها من الاوساخ وکذلك البلاد المجاورة لها فان منظرها کمنظر بلاد الهند العليا لايسرّ خاطرا ولايشرح صدرا

ومدينة لاهور المذکورة هی تخت اقليم پنجاب وان کانت لم تصل الی هذه الدرجة من حيث الدين والتجارة لأن اهم المدن هنالك انما هو مدينة امرتسير فانها مستودع عظيم لتجارة شيلان الکشمير حيث يوجد بها من هذا الصنف مقدار کبير وهو فيها ارخص ثمنا مما فی کشمير وليس فيها شیء من الآثار المرغوبة الا البرکة المقدسة التی يعتقدون برکتها ولهم فی هذه البرکة کتاب دينی يسمی غرانث ينسب لطائفة من الهنود يقال لها سخس وهو موضوع هنالك فی غرفة صغيرة قبتها مذهبة يتوصل اليها بقنطرة منيرة بشموع موضوعة فی شمعدانات کبيرة وحولها آزاج يقيم بها امناء دين تلك الطائفة المسمون اکاليس وهم فی ظاهر أحوالهم من الفجرة الاشرار

يلبسون

يلبسون السواد ويمشون وسيوفهم مسلولة بأيديهم وقد قابلت منهم عدة اناس وتكلمت معهم فوجدتهم من الاخيار ويحسنون ملاقاة من اراد الاطلاع على هذا الكتاب والبركة المذكورة اذا بذل لهم شيأ من الريبات وخلع نعليه * وارض اقليم بجاب على غاية من الاستواء فتفيض عليها مياه الانهر في فصل الامطار وترى في جميع جهاتها سهولا متسعة خالية عن الزراعة يرتع في حشائشها البقر والجاموس وهذه الحيوانات عندهم مقدسة مباركة فعلى من اراد الامن على نفسه من العطب أن لا يتعرض لها فان ارتكاب اكبر الكبائر اهون من قتلها ولو خطأ

وفي هذا الاقليم كثير من اراضي العاقول المسماة جنجل وفي هذه الاراضي كثير من الاشجار الصغيرة والاشجار الكبيرة التي تبلغ عشرين قدما وفيها من حيوانات الصيد على اختلاف انواعها ما لا يحصى كثرة

وعساكر السردارات (اي الحكام الهنديين) اغلبها خال عن الانتظام والترتيب وفيها بعض الايات متعلمة اصول العسكرية على المنوال الفرنساوي وتنادى في الحركات العسكرية بكلمات النداء الفرنساوية ورايتها مثلثة الالوان كالراية الفرنساوية ولهذه الجنود المنتظمة الفضل

على رانجيت سنغ حيث اكتسب بها جزأ عما له من الشوكة والقوة لاسيما العساكر المشاة الذين هم في بلاد المشرق على غاية من الابتذال والاحتقار وكان عنده عساكر طوبجية مهيبة الا أنه لم يمكنه أن يتعود على طريقة الاستحكامات القرعة (اى المساوية لسطح الارض) واما الحصن الذى بنى منذ قليل فى مدينة امرتسير فهو على المنوال القديم جدرانه مرتفعة فوق الارض * ورؤساء السخس على غاية من الشجاعة وشدة البأس فتراهم فى الصيد والقنص يهجمون بانفسهم على الخنازير الوحشية والنمور حتى كأنهم يصارعونها ولا يخطئون المرمى اصلا فى صيد طير او ارنب برّى ويستعملون مدافعهم استعمالا جيدا الى الغاية ومع ذلك فجميع عساكر پنجاب لا يمكنها مقاومة بعض الايات من عساكر الانكليز ورانجيت سنغ يعرف ذلك حق المعرفة حتى انه على ما يقال يسخر غالبا من سردار اته على مدحهم لانفسهم بالشجاعة وفرط القوة

ورؤساء الهنود وضباط الافرنج يدفع لهم بعض ماهياتهم من النقود والبعض الآخر من القرى فهم فى الغالب مضطرون الى الالزام بدفع الخراج بطريق القهر والغلبة

حيث يعينون لجبايته عساكر يرتكبون فى ذلك جميع انواع المفاسد والاجحاف * ورؤساء القرى يقبضون محصولاتها لانفسهم بشرط أن يدفعوا للخزينة المبرية مقدارا معينا وقد يكونون تحت تبعية رئيس خط اوحاكم اقليم فيدفع هو ذلك المقدار للخزينة من الخراج ومتى قام هؤلاء الحكام بدفع هذا الخراج (يعنى المقدار المذكور) لم تعتن الدولة بالالتفات الى سلوكهم فى مأموريتهم وهذه الاراضى التى يقبضون خراجها لانفسهم ليست الامجرد اقطاعات هينة فانك تجد من الاعيان من له اراض خاصة به يولى عليها مديرين وحكاما من طرفه وله عمال من تحت حكمه قائمون بطاعته وامتثال اوامره ومنهم من هو اغنى من الملك ولا يجب للملك عليهم الامجرد اتباعه فى الحرب واخراج ما يخصه من العساكر وهذا كما ترى هو عين طريقة السيادة الالتزامية

ولاجل منع ما كان مضرا بالبلاد من السرقة وقطع الطرق نيط كل رئيس قرية بكفالتها حتى لو وقع شئ من ذلك توجهت عليه المسئولية وكان هو المطالب به وكان رانجيت سنغ يأمر بقطع انوف الدكوات وهم ارباب الصيال وقطع الطرق وهذا العقاب يقع كثيرا فى بلاد پنجاب ومن صار اجدع

بقطع انفه جعل مكانه انفا مستعارا ويتعذر على الانسان
من بعد تمييز تلك الانوف المستعارة من الخلقية واما ذنوب
الاعيان فعقابها دفع المغارم وقل أن حكم رانجيت سنغ
بالقتل على احد الا أن الحكام والسردارات الاخر يفعلون
فى بلادهم ماشاؤا فيحكمون فى دعاوى المعاملات والجنايات
بما ارادوا وقد اضطر الجنرال كورت ذات يوم الى الاجابة
والتسليم فى كون عساكره يحرقون عائلة من المسلمين كان
كبيرها قد قتل ثورا وكل ذلك لم يترتب عليه طريقة
مستحسنة فى الحكومة ولكن اذا تأملت الحالة التى كانت
عليها هذه البلاد سابقا لم تجد بدا من مدح هذا الرجل العظيم
(يعنى رانجيت سنغ) الذى اكسبها الهدء والعز وكان
اجتمع على بهذا الملك الهرم فى اواخر عمره وكان لامناء دينه
والانكليز سلطنة عليه حيث كان مفوضا لهم امر خزائنه
ومملكته وكان فى مبدأ امره زمينداراً (اى اميرا صغيرا)
خاملا خاليا عن حسن التربية اميا لا يقرأ ولا يكتب
ولا يعرف اللسان الفارسى الذى هو لسان الدواوين
والسياسة قصير القامة غير جميل المنظر مع أن حسن الصورة
فى تلك البلاد له اهمية كبيرة واعتبار عظيم فتوصل بمجرد
براعته وجودة قريحته أن تملك على مملكة كبيرة كمملكة

فرانسا

فرانسا من غير أن يريق فيها نقطة دم ولا ان يستعين على ذلك الا بمهارته فى السياسة الملايمة لاخلاق اهل تلك البلاد وقد قضى عمره فى مدة معارضة الانكليز ومنعهم عن ان يكون لهم نفوذ كلمة فى بلادهم لكن آل امرهم الى أن تمكنوا من ذلك وكان قريب عهد بالاذن لهم فى مرور عساكرهم من بلادهم ليسلكوا منها الى مملكة افغانستان

ومن اعظم البراهين الدالة على حزم رانجيت سنغ وحذقه فى السياسة اعترافه بالعجز عن مقاومة الانكليز وعدم اغتراره بما حازه من الظفر والنجاح واهماله لاغواء سردارانه الذين لو أطاعهم لوقع فى الخطأ بتصديه لمقاومة شوكة قوية عليه فمنع بذلك ان يكون للانكليز مدخلية فى مباشرة مصالحه الداخلية لانهم بهذه المدخلية صار لهم سلطنة على سائر ارباب الشوكة من الهنود الذين جبروا على قبول مدخليتهم فى مصالحهم

ويمكن أن بلاد پنجاب تصير مستقر شوكة مهيبة لاسيما اذا جمع الخطر العام (اى الخوف من شوكة الانكليز) بين السخس والافغان بحيث يصير الامتان حزبا واحدا لكن هاتان الامتان يبغض بعضهما بعضا اكثر من بغضهما للانكليز بل فى پنجاب نفسها عدة من رؤساء البلاد

جردهم وانجيت سنغ عن اراضيهم فأعادتها اليهم تهانية الانكليز فلها بذلك المنة والفضل عليهم والمسلمون هنالك مظلومون فهم يبغضون كلا من السخس والهنود * وهذا التفاقم الواقع بين الملل وبين الرؤساء وبين الطوائف الذين عرف الانكليز بمهارتهم كيف ينتفعون منه يعرف به سبب ما حازوه فى تلك البلاد من القوة العجيبة والشوكة الغريبة فلم يكن لهم فى ذلك الا تسليط هذه الامم المتباغضة التى كل واحدة منها تبغى محق الاخرى على بعضها وهذه الطريقة السياسية هى التى سلكها فى اوروبا من اسس شوكته على اثر شوكة غيره بعد ان محقها الان بلاد الهند فيها الاختلال والتفاقم اشد ووسائط الغالبين تفضل وسائط المغلوبين فضلا بينا بحيث لا نسبة بينهما فلذا كان النجاح فيها اسرع

ثم ان مدينة لاهور فيها كثير من الكتب الفارسية والهندية المنسوخة بخط اليد وقد حظيت فيها بشراء الغرائب وهو (كما سبق) كتاب دياة السخس وهو باللسان البنجابي المسمى ايضا باللسان الجورموخى وهذا اللسان لكونه اقرب للسان السانسكريتى من الفارسى قل أن يفهمه المسلمون

ثم ان الجنرال ونتورة جمع جملة من المداليات نقلها الى بلاده لجنرال الارد وكذلك الجنرال كورت جمع ايضا منها جملة وقد بحث كل منهما عنها في ارض مانيكالا ولم تمكن كافة ذلك عليهما مجرد بذل الاموال الجسيمة بل تكلف امر آخر ايضا فانهما لولا نزولهما بألايات من العسكر في مظان ذلك وحظوتهما عند من يرغب في استمالتهما وحسن التفاتهما اليه من اهل تلك البلاد لما نجحا في تحصيلها فمن طمع من السياحين ان يحذو نحوهما في ذلك ويفعل كما فعلا فانما طمع في تحصيل امر خيالي لا حقيقة له وطالما شاهدت اناسا يأتون بالمداليات للجنرال ونتورة وقد اتحفني منها بجملة من النحاس واعطى منها ايضا شيأ لواحد من اطباء الانكليز كان يجتهد في تحصيل جملة منها واتحفني الجنرال كورت بلوحين من النحاس عليهما نقوش قديمة وليس فيهما شيء من الامور المرغوبة كما في امثالهما من العنوانات التي لكونها عبارة عن صحف مشتملة على اقرار الملوك للاقطاعات التي يقطعونها لرعاياهم تذكر من يطلع عليها باسم الملك المقطع وبعض حوادث جعلت في ايامه وكان قد اشتهر خبر هذين اللوحين من جريدة حوادث كلكتة .

ثم أن الملك رانجيت سنغ كان عنده عدة من الباندية وكان له في مدينة بينارس رجل من البراهمة قائم له بوظيفة الصلاة والدعاء ولما كان هذا الملك مشغول الفكر باقتراب وفاته كان يود أن يوصي على روحه جميع القديسين واعظم من كان عنده من الباندية مشهور بانه علامة صاحب فضل ومعارف وكان بيني وبينه مراسلة ومكاتبة باللسان السانسكريتي وكنت قد ذهبت لزيارته فرأيت عنده كتبخانة عظيمة جميع كتبها باللسان السانسكريتي وكانت هذه الكتب قد سرقت في فتح مدينة كشمير فطلبت منه قائمة باسمائها فقال لي ما الفائدة في ذلك وانما خذ هذا الكتاب يغنيك عن كل علم فأخذته فاذا هو كتاب يتعلق بالدين ألفه هو في بيان حقيقة معبوده المسمى سيوة وصفاته وكان هذا العالم شديد الغيرة على اتباعه ثم ان العلوم التي يعتني بها الباندية الذين لهم المام بشيء من المعارف او الذين يزعمون ذلك هي علم الفلك او التنجيم والمجادلات الدينية وليس لهم الآن ميل الى التشبث باداب لغتهم المستظرفة

وبعد زيارتي لهذا العالم انقطعت عني اخباره ولا يخفى انه انما تركني لكوني فقيرا مجردا في تلك البلاد عن الظهير والمعين

وانما حملنى على الرحلة الى تلك الجهة غرورى باخبار السياحين والمواعيد الاكيدة التى وعدت بها فى شأن الحماية والاعانة فاستشعرت أن هذه الرحلة قد عرضتنى الى موانع وعوائق عظيمة غير أنى لم اكن مستعدا للرجوع فتركت كثرة الفكر فى شان ما انا قادم عليه من المشاق وتماديت على السفر مصمما على المخاطرة

(الباب الخامس)

فى سفرى من لاهور الى كشمير والكلام على ويزيراباد وغوزارات وغوزونوالة وعلى قارورات دفن والدى رانجيت سنغ واحتفال جنائز الهنود والسخس وعلى بنير وعلى معاملة النساء فى الهندستان وتعريض قتلى الاشرار فى الطرق وعلى الزواج فى الهند وعلى وادى راجور ومنبع المياه الكبريتية وعلى مايقوله الهنود فى شأن الدول الافرنجية وعلى مرورى من پيربانجال ومراية الباباد ووصولى الى كشمير

فبعد أن اخذت من الملك تذكرة الطريق المسماة عندهم پروانة سعيت فى تحصيل تذكرة اخرى من الصدر الاعظم المسمى ريادهان سنغ حيث كان لابد لى من المرور على ارضه فى ذهابى الى كشمير لأن الحكومة فى لاهور

الترامية فكل رئيس فيها سيد على اراضيه مطلق التصرف فيها واعطيت لاجل الحراسة فى السفر خفرا يتغير فى كل بندر وكذلك اعطيت خادما من اصاغر الخدم لاجل تسليك تذكرة الملك وتذكرة الصدر الاعظم ثم أن قرى الضيف من خصوصيات اهل المشرق فانهم يقابلون نزيلهم بغاية الترحيب والاكرام ويواعدونه مواعيدا كيدة بانهم يبذلون نفوسهم فى خدمته وهذا وان كان من المواعيد المزخرفة والعبارات المموهة الا أنه لايخلو عن بعض الصدق ففى اى محل كنت انزل به من الطريق يأتون الى بطيور ولبن وفرش وحشائش لفرسى وهذا الاكرام الذى قابلونى به هو ادنى درجات الكرم عندهم فان احسنوا القرى اصحبوا النزيل بخادم من اكابر الخدم يتلقى منه الاوامر ويتبعه اينما توجه ويجلب له جميع ما يمكنه جلبه من تلك البلاد ويعظم قدره بين الناس ولكنى كنت على خلاف ذلك وكان اعظم مصائبى هو أن التذكرة التى بيدى كانت محددة للطريق التى اسلكها مع غاية التدقيق بحيث كان لايمكننى مجاوزتها

وكان خروجى من لاهور فى الخامس والعشرين من شهر ابريل فذهبت من الجهة الاخرى من نهر راوى ونزلت فى مدفن جيها نجير فوجدته كغيره من مدافن الامراء

يشمل

يشتمل على بستان ومسجد وخان ثم سافرت منه وكنت كلما اردت النزول نصبت خيمة صغيرة لاتقيني من الشمس ولا المطر ولا الرياح ولا الغبار وربما نزلت ببعض الاحيان في شرايات لطيفة محفوفة بالبساتين فكان تتوع حظي بهذه المثابة في مدة سفري كلها لا يخلو عن اللذة وانبساط النفس

وجميع اراضي تلك البلاد ذات رمال كثيرة العقول ولا يزرع منها الا ما حول القرى والضياع وكل اراضي الهندستان بهذه المثابة حتى البلاد التي تحت حكم قبانية الانكليز وسبب ذلك كما اسلفناه ان الفلاحين لا يتجاسرون على التباعد عن بلادهم بمسافة بعيدة خوفا من ارباب الصيال المسمين ركوات ومن الحيوانات المفترسة لاسيما اهل ينجاب فان اسباب الخوف عندهم اكثر ويزرع هنالك القمح والشعير والزعفران وقصب السكر وقد وجدت عدة باقات من الشوفان الازب ذي السفا وحبه كثير الدقيق ولا يزرع هنالك

والقرى العظيمة مبنية على ربوات صغيرة مستورة باسوار مرتفعة ولاهلها اعتناء بغلق الابواب مدة الليل وكل شيء هنالك يستدل به على أن تلك البلاد مكثت مدة طويلة تخربها الحروب واغارات ارباب الصيال وقد قابلت فرقا

عسكرية نازلة فى الطريق لمنع هؤلاء الناس من النهب والسلب

واشهر ماهنالك من المدن التى فى جهة اقليم بنجاب مدينتا ويزيراباد وغوزارات فاما ويزاباد فقد جدد معظمها الجنرال اريتابيل وشارعها الكبير على غاية من الحسن واللطافة ومن الغريب أنه ايضا على غاية من النظافة وفى كلتا جهتيه صف من الدكاكين وبابها المسمى باب لاهور على شكل قوس من اقواس النصر ويتوصل اليه الداخل من طريق مغروسة بالاشجار وفى طرف المدينة بستان عظيم فيه عدة سرايات وعلى البعد منها بخمسة فراسخ مدينة غوزارات وهى من بلاد الصدر الاعظم راجادهان سنغ وكان اذ ذاك يجرى فيها اشغالا عظيمة وله بالبعد عنها بفرسخ سراية لطيفة والظاهر أن جميع تلك البلاد اخذت فى الصلاح

واسماء المدن والقرى بتلك الجهة ذات ترنم ونغم مطرب بعضها يذكر السامع باسم الله اوباسم ولى اوحادثة شهيرة يجد لها السامع مايجده عند سماع الشعر من اللذة والطرب وهذه الاسماء تتغير غالبا عند اهل تلك البلاد حتى أن الهنود والمسلمين ربما سموا القرية الواحدة باسمين مختلفين

وتصادف

وتصادف فى جميع الطريق بساتين مغروسة بأشجار البرتقان والرمان والغار وكثيرا من الآبار التى بعضها كالعيون وترتفع مياهها بواسطة آلة وتصب كالشلالات فى حياض واغلب هذه الآبار من الامور الخيرية ووجوه البر ولاشئ أليق بامور الخير التى من هذا القبيل من تلك الاقطار المحلة الشديدة الحر

وفى مدينة غوزرونوالة سراية صغيرة فيها بستان وقفها الملك على طائفة الفقراء المعروفين بالدراويش (فهى كالتكية) وفى هذه السراية قارورات دفن والدى رائحيت سنغ (وهى القارورات التى حفظ فيها رماد جثتهما بعد احراقهما) ولم أر غيرها من هذا النوع فى بلاد الهند وذلك لأن الهنود والسخس يحرقون اجسام موتاهم ويتركون رمادها ولا يحفظونه فى وعاء من الاوعية

وفى بعض الاحيان كنت اشاهد وانا اتريض على شواطئ النهر احتفالات احراق الموتى وكيفية ذلك ان اقارب الميت يحملونه الى الشواطئ ويوقدون نارا كبيرة او صغيرة على قدر حالهم ثم يجثون على ركبهم مصطفين واحدا بعد واحد ويصلون صلاتهم ثم يذهبون للاغتسال حتى اذا اشتعلت النار وتأججت انصرفوا فتشم الكلاب رائحة الرمة بعد

انصرافهم فتأتى اليهامن جميع الجهات تحاول اخذ قطعة مشوية من فخذ الميت اوذراعه ولاادرى هل عدم احترام الميت بهذه المثابة عام لكل ميت حتى الاكابر اوهو مخصوص بغير الاكابر

ولكن هذا مخالف لما ذكره كولبروك في مجموعاته ونصت عليه الكتب السانسكريتية في وصف هذه الاحتفالات حيث ذكروه بوجه آخر

ولنذكر لك هنا كيفية صلاتهم على الميت وهي عبارة عن مواعظ يتلوها اقارب الميت وهم جاثون على ركبهم حول النار الموقدة لاجل احراقه من غير أن تدمع اعينهم بل يمنعون انفسهم من البكاء عليه وهي

مجنون من يطمع في بقاء الحياة البشرية السريعة العطب كسوق اشجار الموز والمارة كزبد الامواج

وحيث ان الجسم المتكون من العناصر الخمسة ظهر ليجازى على اعماله التي عملها في وجوده السابق ثم عاد الى عناصره الاولية المذكورة فما الموجب للاسف والبكاء عليه

واذا كانت الارض كلها مصيرها للزوال وكذا البحر المحيط بل والآلهة انفسهم فكيف بالخلق الضعيف المسمى انسانا وكيف يتأتى له الفرار من العدم

وكل صغير عاقبته العدم وكل رفيع غايته السقوط وكل جسم مركب نهايته التحلل وغاية الحياة الموت

وحيث ان الارواح تتاذى بالبكاء فلا تبك بل وف برسم الجنازة على ما ينبغي

ولا حاجة لذكر اسفاري اليومية تفصيلا لما أن الحوادث التي كانت تحصل فيها لم يكن لها كبير فائدة وانما اقول انه كان معي في تلك الاسفار خفر وخدم وقاسيت فيها مالا مزيد عليه من الجوع والعطش والحر وذلك أن مشايخ القرى المسمين ثانادار لما كانوا مجبورين على العمل بما في پروانة الملك وپروانة الوزير كانوا يبعثون الي بأردأ ما في الاسواق مما احتاجه منها ولأجل أن يفهموني انه لا ذنب عليهم في ذلك كانوا يمنعون البياعين أن يبيعوا لي شيأ والضابط الذي كانت معه البروانة لم يكن جليل المقام حتى يمتثلوا امره بل رأيت منه أنه كان يتفق مع جميع الناس على سرقة ما معي وعلى اجاعتي وكنت اسافر مدة من الليل لأن الرياح الحارة كانت وقتئذ قد أخذت في الهبوب ولأن حر النهار مضر تفتر به الهمة وفي مسافة الطريق كنت دائما ارى الجبال فكنت اتسلى على تعبي برجاء اجتيازها بعد يسير من الزمن

وبقرب تلك الجبال كنت ارى السهل بعظم انحداره ويبدى للرائى صفائا قليل الارتفاع وجميع ماحوله من البلاد له موقع عظيم يحق أن يرسم وتؤخذ صورته ورأيت فى مدينة بنبر امرأة مربوطة فى المحراث مع ثور من ثيران الحراثة وفى بلاد الهند تجد نساء العامة غير مقصورات بل يخرجن ويشتغلن كثيرا وازواجهن فى الغالب يسيؤون معاملتهن بخلاف نساء الخاصة سواء كن مسلمات اوهنديات فانهن دائما مقصورات فى بيوتهن ولا يباح لاحد أن يتكلم بشئ فى شأنهن فلذا كانت عوايدهن مجهولة وانما الذى يعرف فى حقهن أن ازواجهن قد يلحقهم الفقر والافلاس لما يبذلونه فى تحصيل الحلى والملابس الفاخرة لهن وليس لهم فى هذا الحلى فخر ولا عجب لانه محجوب عن الابصار والنساء وان كن مقصورات فى البيوت ولا يخرجن عن طاعة ازواجهن بل هن دائما تحت قبضتهم وتصرفهم الا أنه لم يضع لهن شئ من نفوذ الكلمة عليهم وهذا يرد على من اعترض على اهل المشرق فى عادتهم مع نسائهم

والارض التى بين مدينتى بندا وبنبر ذات رمال مختلطة بفراش من الحصى المستدير فهى كشواطئ البحر سواء بسواء وفيها ايضا كثير من الحمار الصغير

ولما ذهبت الى مدينة بنبر نزلت فى سهل امام الدرب بمسافة صغيرة فرأيت موقعا حسنا ومنظرا متنوعا جديرا بأن تؤخذ صورته كناظر الجبال عادة وفى هذا المحل اخر شجرة من اشجار المنغبير والجهة الاخرى من الجبل شديدة البرد على اهل تلك البلاد وكان نزولى تحت تلك الشجرة فرأيت بجانبها جدول ماء جار يكتنفه اشجار مزهرة من شجر الدفلى

وسهل بنبر محصور بين الجبال وحرّه شديد جدّا وفيه نهر صغير تمتدّه الامطار على حين غفلة حتى لا يمكن خوضه وقد اردت أن اشرع فى ابحاث جغرافية حتى اعرف مجرى هذا النهر فلم يؤذن لى بالمرور فألححت فى ذلك فلم اجب الا بالمنع فترتب على هذا المنع بانضمامه الى الحرّ وتعب السفر أن اصبت بالحمى حتى غلبنى القىء وكانت حمى جبلية لا دواء لها الا النقلة فسافرت مع تسعة رجال لحمل امتعتى واثقالى ولم يقع لغيرى من الافرنج مثل هذه الاهبة الحقيرة فوجدت فى اعلى الدرب منزلا معدّا لاستراحة السياحين وفيه حجمتان معصوبتان بدوائر من الحديد تنزل عليهما الاغربة جريا على ما سبق لها من اكل الرمم فى هذا المحل لأن عادتهم هنالك أنهم يشنقون المذنبين ويعرّضونهم فى الطرق ليكونوا عبرة لغيرهم

وتسمى هذه السلسلة الاولى من تلك الجبال بسلسلة جبال اوديدولك

وفى جانب الجبل طريق ضيق فى غابة من اشجار التّرنّب الشاه بلوط يهبط منها الى واد فنزلت بقرب بركة ومع ما اعترانى من وعثاء السفر والمشاق وشدة ما اجده من رؤيتى لنفسى كالاسير واساءة ادب الخفر الذين كانوا معى لم يفتنى شئ من مشاهدة مناظر الجهات المحيطة بنا فان ذلك الوادى اللطيف المسقى بالغدران الصافية المياه والمحفوف بالتلال المتنوعة المناظر فى آن واحد والجبال المشيدة التى على ذرواتها الحصون الشاهقة والصخور والآجام والبساتين والغيطان المزروعة يتكون منها منظر بهيج يأخذ بالالباب وكان بجوار البركة التى نزلت بها مسكن رجل مسلم من الفقراء اهل الطريق قد دعانى للضيافة فى منزله فاحببت أن ابيت تحت عبد السماء المزين بالكواكب التى كنت اشاهدها كأنها مرآة منعكس فيها الجبال المظلمة الالوان و منتقش فيها صورذلك ومع ذلك فقد شكرت دعوة ذلك الفقير الكريم ولم اجبه الى الضيافة وقد رأيت أن المسلمين اكثر ميلا لاقراء الضيوف احتسابا من اليهود فى عمل الضيافة ولا اخص بذلك مسلمى اقليم بانجار الذين هم فى اشد الظلم والفقر

بلى

بل اعم جميع مسلمى بلاد الهند كما قد ذكرت ذلك فى غير موضع من هذه الرحلة

فليعى عند هؤلاء المسلمين تلك الاوهام والعوايد التى تمنع الهنود بتغلبها على عقولهم الفاسدة من أن يعيروا الغرباء منازلهم اوشيأ من الادوات المنزلية

وقد مرّ بالطريق مساء محفل من الرجال ما بين مشاة وفرسان وكان يضرب امامهم آلات مفرحة مطربة وكان ذلك عرسا فأشاروا الىّ على الزوج فوجدته شابا صغير السن يبلغ من العمر خمس سنين اوست ولم تكن العروس فى الزفاف فى هذا المحفل وهذه الامور من الدقائق التى لا يليق لمثلى الاستفحاص عنها فلم يمكنى أن استفيد حقيقة هذا الزواج الغريب انما وقفت على أنه تزويج الصغير للصغيرة وكذلك زواج الشيوخ بالابكار المراهقة فتعقد اقارب الزوجين العقد باعتبار أحوال ثروتهم وشرف عائلتهم وهذه هى المكافاة عندهم

وفى بعض بلاد الهند يقتلون البنات اذا يئسوا من تزويجهن بالكفاءة وقد اجتزت سلسلة جبال ثانية تسمى كيمان كموشاه فوصلت الى وادى راجور بعد مسير يومين وفى الطريق خانات للمسافرين كان قد بناها الملك اكبير ومعظم هذه الخانات قد تهدم واما الطريق التى احدثها المسماة بالطريق

السلطانية فليست الآن الا طريقا ضيقة رديئة لا يمكن مرور شخصين معا بلصق بعضهما فى اتجاه واحد ويشاهد الانسان قبل الوصول الى مدينة راجور حصنا فيه برج شامخ يظن على بعد أنه بيت ناقوس كنيسة من كنائس بلاد اوربا فياله من محل لطيف يهيج به قلب السواح من الافرنج ويحن الى وطنه ويتذكر مسقط رأسه ووادى هذه الجبال يرويه نهير تزداد مياهه كل يوم بما يذاب من الثلوج فلا بد للانسان غالبا من عبوره وفراش هذا النهر يتكون من حصى دقيق متموج يصعب بسببه عبور هذا النهر وتجد فى بقعة هذا الوادى آثار قصور الحصون متفرقة شغر بغر

وكان الرجا الذى هو حاكم مدينة راجور قد تنازل عن بلاده وأهداها لرجا دهان سنغ وكان فى بلاد لاهور حين مررت بها فلم اقابله الا فى اوبتى من هذا السفر فوجدته من صلحاء الاسلام حيث يرى منه أنه متفرغ بالكلية للعبادة غير أنه كثيرا ما احسن تدبير أمور المملكة فى الاوقات الصعبة مثل كثير من الناس الاتقياء وقد سألنى ماذا يحصل لبلده اذا استولى الانكليز على اقليم بانجاب فأجبته بأن السؤال عن هذا لا يعنينى البتة وكذلك لما سألنى ولده عن ظفر الجيوش الانكليزية فى مملكة افغانستان

اجبته بهذا الجواب بعينه وقد تعجب كثيرا حين اخبرته أن الفرنساوية والانكليز دولتان مختلفتان وكان يعتقد قبل ذلك انا معاشر الفرنساوية رعية القمبانية الانكليزية وقد انجر الكلام على سيرة الايمبراطور نابوليون فكانوا يعتقدون انه قد أضرم نيران الفتن مدة من الزمن فى وطنه وانه بعد موته خمدت وعادت الى ما كانت عليه من الانتظام وبالجملة فجميع الهنود على العموم لا يعرفون جميع الاسماء الافرنجية قديمة كانت أو حادثة الا رومة واسكندر وارسطاطاليس وافلاطون وسقراط وسولون ونابوليون والقمبانية الانكليزية والحكومة الفرنساوية والموسقو ويعتقدون أن رومة هى القسطنطينية وهى اوروبا بتمامها من غير تمييز فتقول مؤرخوهم مثلا ان الملك اسكندر الاكبر كان قد وفد الى بلادهم من مدينة رومة وعندهم كلمة قمبانية من الالفاظ التى تبهر العقول وتسحر الالباب فيعتقدون انها منطوية على جميع نخار الدنيا وشوكتها ففسرت لهم ذات يوم معنى هذه الكلمة الحقيق وكيفية أصول جمعية التجار الانكليزية الى صيرورتها دولة بالهندستان فاستشعرت منهم انهم لا يصدقون كلامى البتة وقد أخذت الآن الموسقو فى اشهار صولتهم وجلالة اسمهم فى تلك البلاد فحدثت الهنود

فى شأنهم كثيرا ويظهر منهم انهم يحبون سماع أخبار هذه الدولة وتفصيل حالها وكان اذ ذاك الوقت حرائة الانكليز فى مملكة افغانستان كى توقف توسع شوكة الموسقو فى تلك الجهة فكانت ارباب الحكومة الانكليزية ترخص لمن يؤلف كاز تلك الوقائع فى أن يتكلموا على حسب مرادهم فى شأن الموسقو وفى مقاصد اغارتهم على المملكة المذكورة وما لهم من الجواسيس فى بلاد الهند وكانت تبيح لهم ايضا أن يوقظوا اهل الافغانستان أن يأخذوا الحذر من الموسقو ولا يميلوا لهم لان حكومة افغانستان متلونة بل مستبعدة لكونها تستبدل حكامها الطلمة بدون أن تتفكر فى نجاتها من لديهم ومتى تكلمت الهنود فى شأن دولة من الدول الافرنجية فأول سؤالهم يكون عن معرفة مقدار ما عندهم من المدافع ولهم ميل ايضا الى التكلم فى الامور السياسية وحيث كان لا المام لهم البتة فى اى حكومة من حكومات الافرنج ويظنون ان الانسان يهزأ بهم ويسخر اذا اخبرهم بالصدق فى شأنها تعسر عليهم الوقوف على حقيقة الحال والوصول الى ما فيه لهم المصلحة والغبطة وقد أخذت الاذن من ابن حاكم تلك البلدة فى الذهاب لرؤية عين الماء الكبريتية التى توجد فى التزاماته فوجدتها عيسا غزيرة الماء جدا يتكون منها فى اقرب وقت

غدير

غدير كبير يقذف على شواطئه الكبريت فى حالته الطبيعية
ومنظر حوالى هذه العين من البقاع بركانى حيث يوجد فيها
مقدار عظيم من سولفات الحديد والنحاس (اى التوتيا)
وجميع مابقى من الوادى حسن الزرع وعظيم الخصوبة جدا
وأرزها جيد حتى انه اذا غلى فقط فى قدر ولم ينبل بشئ من
البهارات كان لذيذ المأكل وينبت فيها أشجار المشمش
والبرقوق والتوت ويخرج منها ايضا نوع ردىء جدا من
التوت الافرنجى ذو أزهار صفراء وترع أشجار البرتقان
والرمان فى البساتين ثم ان اهل القبائل الجبلية النازلة بين
القرى وبعضها لم تزل فى حروب مستمرة مع بعضهم وقد
أخبرت فى طريق أن خمسة رجال أو ستة قد قتلوا فى معركة
ويظهر من منظر رجال تلك القبائل الذين قابلتهم انهم ذووا
استعداد الى الحروب مع بعضهم فبمجرد ما أبصرونى فروا
خوفا من ان تقبض عليهم الخفراء الذين كانوا معى فيحصل لهم
الضرر

فبمجرد خلو الطريق وسلوكه اجتزت جبل بير بانجاب
فرأيت انه يحلف مناظر وادى راجور الباهرة جميل ذات
قنات مملوءة بغابات أشجار الراتنج والسيول المهولة القرقعة
حال السقوط والشلالات النابعة من الصخور العالية وكان

اذ ذاك زمن ذوبان الثلج حتى انى مكثت مدة قليلة من الزمن منغمسا فى واد عميق يصل ماؤه الى خاصرتى فصرت مجبورا على أن اتمسك بالاشجار الصغيرة وفروع الاشجار الكبيرة فى مسيرى وكانت الثلوج تخلع من الجبل احجارا جسيمة فتسقط قطعا ويتعذر على الانسان ان يعرف كيفية سقوطها واتجاهها فيحترس منها فقد انقلب احد الخفراء على ظهره بسقوط حجر منها عليه وفى جبل بيربانجال محل منحدر جدا يرتقيه الانسان بواسطة عدة محال متوالية ينزل بها لقصد الراحة والقرى التى توجد فى تلك الجبال حقيرة فيرمون حول المساكن القاذورات ورمم الحيوانات فيشق على الانسان ان يجد محلا يضرب فيه خيمة صغيرة ومن العادة الجارية ان يذبح الانسان ذبيحة من المعز لاتباعه على حجر معد لذلك فى المحطة التى ينزل فيها قبل اجتيازجبل بيربانجال والجبل المذكور من هذه الناحية منظر جلالة وحزن فان النظر لا يبصر من جميع الجهات الا جبالا ذوات ثلوج واجمات من اشجار الراتنج ولا تجد فى جميع اماكنها انيسا ولا تسمع صوتا وانما تسمع فى مسافة بعد اخرى تغريد امطر بالذيذا يشجى السامع يصدح به بعض الطيور المقيمة بهذه البقاع الخالية عن السكان

ولما

ولما وصلت الى رأس جبل پير بانجال جاءنى رجل قصير القامة جدا بأزهار ويقال ان له سرا عجيبا عنده شئ من السحر يقتدر به على اثارة هبوب الرياح والفرطونات وتسكينها ويتراءى منه بلزومه الصمت والتفكر انه يحاول ثبات ما يودع فى قلوب الناس من الاحترام لاسراره فأردت التكلم معه فلم يجبنى شئ

ويوجد على راس ذلك الجبل حصن خال من السكان مدة الشتاء وسفح ذلك الجبل ممتد محيط به من جانبيه صخور مخضرة اللون لا يذوب الثلج من فوقها ابدا وقطره بارد جدا وتكتنفه غمامة كثيفة تحجب الطرف من ان يرى ما حول ذلك السفح وقد اشتد بى التعب فسقطت فاتر الهمة فوق احجار كان يسمع تحتها خرير عين ماء وكان ينمو بجانبها الحشيشة المسماة انجليقا (اى حشيشة الملائكة) فغشينا الليل وأخذنا فى السير فوصلنا فى جنح الليل الى محل يسمى على اباد وليس هذا المحل الا مجرد خان للسواح قد حماه من التدمير الكلى شدة الحاجة اليه بلا محالة فنزلت به فى غرفة مسودة بالدخان لم تسع الا فرشة واحدة لا يمكن الوصول اليها الا بالمرور من سرداب فكنت اصل اليها منه صاعدا بواسطة سلم وكانت الارض اذ ذاك مغطاة بالثلج المتدفق ومن سفح

الجبل قبل خان على اباد تنزل فى سهل عميق فكنت اكابد المشقة فى مشاهدة المخاوف والاهوال فى اثناء وميض البروق وقرقعة الرعود المفزعة فان موقع هذا المحل الذى اقمت به عرضة لهبوب الرياح العواصف التى اهلكت كثيرا من السياحين فقد وجدت فى الطريق آثار رمة رجل سواح سيئ الحظ ممزقه بالكلية وكان لحمه الذى كشفته الثلوج منذ مدة قليلة محفوظا حفظا تاما وبعد أن جبرنا على الاقامة فى ذلك الخان مدة يومين سافرت مع سقوط الثلج وشكوى اتباعى لزمنا أن نجتاز طول الطريق ثانيا سيولا منجمدة وكنا نجد قناطر صغيرة من الخشب حادثة الصناعة لاجل عبور السيول الصعبة ويوجد هنالك حصون تشرف على الاودية وعلى الطرق متباعدة عن بعضها والجهة المقابلة من تلك الجبال الى جهة الشمال مملوءة بحشائش كثيرة ويوجد ثم كثير من الاشجار التى شوتها نار الصواعق وفيها ايضا بعض اشجار كانت قد أوقدت بسفح سيقانها السياحون النار وأحرقتها للحاجة ويهبط الانسان مدة كثيرة قبل الوصول الى الوادى وشقه الهبوط اكثر من شقه الصعود لكونه منحدرا ومن هنا يسهل على الانسان أن يعتبر ببادئ الراى قدر وادى كشمير العالى وقد وصلت اليه فى اثنين وعشرين

خلت

خلت من شهر ايار فوجدت فى اول محطة زربية من روعة
بشجر التفاح ومحفوفا بخنادق ينبت فيها الشوك وشجر
الابخرة والبرسيم الاحمر فكنت اخال انى فى زربية من
التوامات اقليم نورمنديا العليا ولكن قبح منظرها احزننى
عوضا عن ان يجلب الى السرور فصرت حينئذ فى اسوء حال
من الغم والكآبة حتى ان التصورات الاولية التى خطرت
بذهنى فى شأن هذه الاراضى الجميلة المنسوبة لمدينة كشمير
تبدلت بالتأسف على مفارقة وطنى

ويمكن للسياح ان يسيح فى اى مكان أراده من هذه البلاد
بواسطة حماية اهل الحكومة الانكليزية التى تتكفل بحماية
ارباب الحكومة الهندية الاهلية فان نفاد اللوازم والمهمات
وعروض المشاق التى لا يمكن درؤها فى السياحة لا يمكن
تداركها الا بواسطة تلك الحماية ولا تكون الا اقل مما يظن
الانسان حصوله فى شأنها فى هذه الآلات التى لم تزل باقية الى
الآن على قلة التمدن ثم ان اقبح مدار ارض هذه الجهة الدود
الصغير الذى يكثر انتشاره فى البيوت وفى الاراضى ايضا فتراها
دائما تتعلق بالانسان وصور البلاد وأهلها واخلاقها لا تشبه
غيرها من باقى البلاد ويحصل باختلاف الامكنة وكثرة
تنوعها فى الغالب ومن عدم الوقوف بمنزل يأوى اليه

الانسان ومن الحوادث المستقبلة التي يتوقع عروضها ميل ورغبة لاهلها في عيشة الرحالة التراكة ومن المهم تخطيط جميع هذه الجهات لقصد فائدة العلوم الطبيعية والمواليد وعلم الجغرافية وليس فيها شئ يحتاج وصفه مما يتعلق بعلم الارشيولوجيا (اى علم الآثار القديمة) ولا بعلم الادبيات والتواريخ اذ لا يوجد الآن فيها آثار قديمة ولا كتب ولا علما وهذا امر غريب حتى انه يوجد في وادى كشمير وكذا في الجبال المحافة به من جهة الشمال آثار قديمة واماكن معدة للحج وروايات تتعلق بالآثار القديمة الهندية وحيث كان يشاهد في وادى راجور كثير من بقايا الحصون فلا مانع من ان يعلم ببادئ الرأى ان رؤساء ذلك الوادى يحارب بعضهم بعضا وانه في اثناء التعكرات المستمرة بهذه البلاد ينقرض جميع آثار علم الآداب والانطيقة وكنت أتفكر في وحدتي وانفرادى بهذه البلاد وانه ليس معي من يفيدني من الاخبار الصحيحة التي تخص هذا الوادى وكان يمكن بالوسائط والوسعة ان اكون سعيد الحظ ببلوغ الاخبار اللازمة لي في هذه الاسفار

(الباب السادس)

فيما يتعلق بالكلام على مدينة كشمير وعلى القبة المشيدة

فوق الجبل وبيان معتقد سكان هذه المدينة فى حالة واديها الاولية وذكر ما يتعلق بسيدنا سليمان عليه السلام ووصف كاسيابه وعلى الآثار القديمة وعلى الراقصات وعلى پندتى كشمير (اى علمائها) وذكر الموانع التى عاقتنى عن اتمام هذه الرحلة امامدينة كشمير فانها تمتد بطول نهر جالوم وبيوتها تتخذ من الخشب على قواعد من احجار النحت وشبابيكها مغلوقة بواسطة انواع من الخشب منفرجة بحيث يدخل الضوء منها وهذه الشبابيك متنوعة الصور والرسوم فيرفعونها بحسب الطلب ويورق مدة الشتاء وسطوحها مغطاة بالطين فتنبت فيها الحشائش والازهار وبهذه المثابة جميع بيوت الوادى ومن بعيد يرى لجميع المدن والقرى منظر بهيج وبطول شاطئ النهر احجار جسيمة متراكمة من احجار النحت تتكون منها ارصفة وجميع المساجد متخذة من الاحجار المنحونة وهى من آثار الهياكل الهندية القديمة ماعدا المسجد الاعظم فانه مشيد بالخشب ويوجد على عدة احجار صور على ثلاثة منها نقوش منها نقش فى النهر لا يشاهد الاوقت هبوطه الزائد والقناطر الموجودة على هذا النهر مشيدة بالخشب فوق دعائم من احجار ولهم حوانيت كالحوانيت المصنوعة فوق القنطرة المسماة نوف (اى

الجديدة) ومن ألطف مايوجد وقت المساء الرياضة والتزاهة على شاطئ هذا النهر فان ظلام الليل يخفى عن اعين الناظر وساخة المدينة واهلها ويشاهد الانسان بعض شبابيك داخل البيوت المظلمة تمتاز عن ماعداها بالضوء والنور فيظهر للمتنزه اجمل والطف الاشكال العجيبة الباهرة التى تلعب بالالباب فى تلك البلاد

ويشرف على مدينة كشمير حصن يتراءى من بعد انه بشع المنظر مخيفه وبأسفله قصر يكاد ان يكون جميعه محفوظا وحوالى البلد بحيرة لطيفة محفوفة بالجبال ومملوءة بالنباتات والازهار غير أنها مضرة بالصحة جدا بسبب عفونتها ويصعد منها رائحة الطين المنتنة عند يبسها ونشافها ويصب فيها كثير من العيون فتارة يصب ماؤها فى النهر وتارة تتصاعد وترجع الى حيث أتت بسبب فيضان المياه المجاورة لها وعلى شرقى شاطئ هذه البحيرة قبة هندية شاهقة البناء فوق تل وبجوارها مسجد يضاهيها غير أنه قد عفى بالكلية اما هى فلم تزل الى الآن باقية على ما كانت عليه وانما يشاهد لها بعض ميلان كأنها اضطربت برجة قوية وتشتمل هذه القبة على شجرة تسمى باللغة الهندية لانغا ورأس تلك القبة على هيئة ناقوس

وتطلع

وتطلع الهنود السياحين على المحل الذى كان النبى سليمان عليه السلام قد أمر المياه فيه ان تغور وتزعم ان وادى كشمير كان سابقا بحيرة فصار على حين غفلة ارضا معمورة فالمسلمون منهم ينسبون هذه المعجزة الى سليمان عليه السلام وغيرهم يعزونها الى كاسيباپه اعنى الشيطان المتمرد الشهير عندهم باسم موتى وهو الذى كان قد خرق ذلك الوادى ووصله بيارموله وربما قطعنا النظر عن الخرافات وقلنا ان الوادى كان بحيرة وان مياهه المحصورة تمر على حافاتها فاكل امرها أن افتتح لها مجرى من بارموله التى ارضها منحدرة جدا بموجب الرواية المأثورة عنهم وذلك أليق بالنفس واقبل للعقل ولم تزل الاهالى تشاهد الى الآن نقصان مياه تلك البحيرة بالتدريج ويطلعون السياح على سهول متسعة يزعمون انها كانت غدرانا وكثير من العيون ماغار وجف ماؤه بل صار لا يوجد للمياه اثر فى بقايا المدن المتسعة جدا التى بالنظر للوادى الكثير المياه لا يصح ان يقال انها بنيت فى أماكن لا ماء بها وارض كشمير مشهورة عند الهنود بكونها مقدسة ولها ايضا عند المسلمين مزيد احترام ولكل طائفة محل فى هذه الارض للحج والتقيا وسير مأثورة عندهم غير أن جميع مافيها من الآثار القديمة الدينية يعزى الى الهنود ويطلعون

السياح على لحية كبيرة يزعمون انها لحية نبيّ وفى البحيرة حجر على صورة رجل كان انسانا ذا روح فمسخ صورته ولىّ من المسلمين كان قد غضب عليه ولهم آثار أغرب من هذه الآثار وهى هياكل عظيمة وبقايا ابنية جليلة فاقت على اغتيال نفوس أعاديهم الذين كانوا قد هموا بهدمها فعجزوا عن ان يقاوموا متانتها وأغلب المساجد التى شيدها المسلمون بجوار الهياكل الهندية ليست الآن الا خربة مع ان تلك الهياكل لم تزل الى الآن باقية على ماهى عليه

والقصور الجديدة التى انشأها ايبراطرة الموغول فى غاية من الحفظ لاسيما البساتين والقصور المحبية المنسوبة لكل من الملك شاهباز ونيشاهلباز الذى لم تزل حكومته آخذة فى الاهتمام بحفظها من التلف والدمار اما البساتين فهى على صورة مدرج وكل دور منها يشتمل على ابنية سواء كانت كثيرة الاهتمام اولا وفى الوسط عين ماء يتكون منها حال جريانها شلالات وبرك وفساقى ذوات فورات وتحت الشلالات حفر صغيرة معدّة لان تظهر فيها الاضواء المنعكسة فى مياه تلك العين ذات البريق واللمعان ويبيح اهل تلك البلاد للنساء الراقصات ان يغتسلن فى تلك الحياض على صورة عرائس البحر فان لهم ميلا عظيما فى مشاهدة لعتسالهن بهذه المثابة

وفى

وفى مشاهدة لمعان اشعة تلك العيون وبريق الاضواء المنعكسة فى المياه وصوار يخ البارود لامعة جدا فيطلقونها غالبا فى بيوتهم لقصد التفرج عليها حتى فى غير المواسم فيجتمعون فى هذه الملاهى بين النساء والازهار والملابس الفاخرة وآلات الطرب والرقص ويحبون الزخرفة والمبالغة فيما يخص الملابس والمواسم والابنية والاشعار وبانهما كهم على هذه الملاهى المعدة لتنزيه اعينهم وحواسهم الغير المهذبة يعلم من غير شك انهم اضاعوا ما أودعته القدرة الالهية فى النوع الانسانى من الذوق وخاصة الاحساس ومتى أقام الانسان زمنا طويلا فى المدن الكبيرة بين اهلها آل أمره الى ان يتعود على استعمال المجازات فى تراكيب كلامهم وعلى التصنع الذى يزينون به دواوين اشعارهم الفارسية والذى يظهر أنه هو الذى يبعثهم على الالتفات لذلك

ومن المستحيل فى هذه البلدة الممدوحة جدا بجمال نسائها ان يبصر الانسان اناسا مشوهين الخلقة والصورة كما يشاهد فى الحارات والنساء الممتازة قليلا عن غيرهن لا يمكن لاحد من الرجال أن يشاهدهن بخلاف غيرهن من الزاقسات وحيث ان الحسان منهن يرسلن الى مدينة لاهور وسيرها من الهند ولا يرجعن الا بعد ما يعقدن الحاسن التى يستملن بها

القلوب الخالية عن الاشغال لا ينبغي ان يحكم عليهن بشيء ما بالنظر لكونهن في مدينة كشمير ولم ار في الراقصات التي جئن لزيارتي جميلا الا امرأتين او ثلاث ومع كونهن ذولت شعور حسنة التضفير وسود العيون وظريفات التقاطيع وصاحبات حلي وملابس فاخرة واغاني مطربة ورقص لطيف فلا بد من منفر يصرن به من القبيحات بحيث لا يحصل للانسان منهن استلذاذ ولا مأرب ويتعاطين في آن واحد حرفة ضرب الآلات المطربة والرقص ومنادمة العشاق ولهن اعتبار عظيم بين الهنود حتى ان الانسان الذي لا يقبل عليهن يعد رديء التربية جدا وغناهن لطيف يهيج النفس ويغلب على العقل متى كان دالا على الحب والعشق ويظهر للانسان من اول وهلة انه غريب الشكل ولكن مع التدريج شيأ فشيأ يتعود عليه ويصير مألوفا له ويتطبع به واما الكحل الذي يكتحلن به فانه يطول شكل اعينهن والاكتحال يكون لقصد التجمل والزينة وايضا فهو وسيلة للتوقي من الرمد الكثير الوقوع في هذه البلدة بسبب البرك الراكدة ويتعلن حال الصغر تصنع جلب المحبة والعشق والحياء والعبرة ويفصحن عن هذه الخصال بطريقة لطيفة أقرب للحقيقة جدا بحيث يتعذر على الانسان الاحتراز من محالطتهن وحفظ

نفسه من الميل اليهن والوقوع فى احبولتهن وليس لهن هيئة قبيحة مصطنعة كما هى عادة الراقصات الافرنجية اللاتى يفقن فى الجملة الراقصات الهندية فوقاما عظيما فى الطرف والخفة ولهل المشرق مع كونهم يتزوجون بنساء عديدة لا يمتنعون فى الغالب من ان يدعوا هؤلاء الراقصات فى مواسمهم ومجتمعات انسهم لما ان الرقص والغناء ممنوعان رأساس تربية المحصنات من النساء

واما الراقصون من الذكران فيتزيون بزى النساء فى ملابسهم ويجتهدون من صغرهم فى تقليد النساء فى التصنع والتكسر حتى انه ربما اشتبه على الانسان ان يميز كونهم ذكورا اواناثا وهم فى الغالب فرقة من الحرف لسافلة التى ترقص وتلعب امام الناس من غير تستر فى محل ويلعبون ايضا ألعابا مضحكة مختلفة النوع فى التقليد على اختلاف طباع الناس الذين يقلدونهم وجسارتهم على السخرية والاستهزاء بالدولة وضباطها عجيبة وذلك لما ان التطاول وقلة التحاشى من اخلاق الهنود بحيث لا يحشون عاقبة ذلك من الذم والاستهزاء بهم

ولما وصلت مدينة كشمير وجدت بها رجلا يسمى ميرزا حمد وهو المنشئ القديم لجاكون فأفادنى باشياء

ولسان الفارسى هو المستعمل عندهم فى المكاتبات وهو لسان الادب والتمدن بين رجال الدواوين الهندية ويمتاز عن غيره لكونه محدودا ولا يتغير دائما كلسان الهندستان الا أن الفارسى غير مفهوم عند العامة من الهنود

(الباب السابع)

فيما يتعلق بسياحتى فى داخل وادى كشمير وبمدينة بنبور وبالبركة الموجودة بقربها وبهيكلها الهندى وبحدود غيطانها وآثارها ونقوشها القديمة وبمدينتى بيدجبيار واسلام اباد والآثار القديمة التى توجد فوق سفح جبلها وبمدينة موتون ومغاراتها وبمدينة ورناغ وبالحجر المتكون من النار والثلج وبمعادن ذلك الوادى وثعابينه ودبابه وسباعه وثمورته الكثيرة الوجود فى كشمير وتخطيطات السياحين الاول لهذا الوادى وخبر موت الملك رانجيت سنغ وبالنساء السيخية والهندية اللاتى يلقين بأنفسهن فى النار عند احراق ازواجهن وسياحتى فى الغرب من هذا الوادى والهياكل القديمة وبمدينة بارموله وخط كامراج وقنة جبل بالارامة وورشة الشيلان الكشميرية ومحصولات وادى كشمير وعظمة نتائجه وفقر سكانه ورغبة

السياح فيما فيه من الآثار وآداب اللغة القديمة وآداب الهنود:

ومدينة بنبور على البعد من مدينة كشمير بفرسخين حال المعود فوق نهر جالو جهة منبعه وقبل الوصول اليها تجد بركة في وسطها هيكل ولاجل أن أأخذ صورة هذا الهيكل ركبت زورقا رديئا فانغمس بي في الماء فاحتملني الملاحون على ظهورهم لكي ارجع ثانيا الى الشاطئ فكنت اراود نفسي حالة الرجوع اليه ان اركب زورقا احسن من هذا فلم يتيسر لي ذلك فاقتصرت على تصوير الهيكل من بعد أما شكل بنائه فهو مخالف لشكل هياكل الجهات الاخر من بلاد الهند فان سطوحه مائلة جدا مع ان سطوح بيوت مدينة كشمير تكاد أن تكون مستوية وهذا الانحراف ضروري بالنسبة لبلدة كثيرة الثلوج وفي سفح الجبل المجاور للهيكل بقايا مدينة كبيرة من المدن القديمة واشجار جسيمة من اشجار السنجاس ولا يوجد هنالك الآن شيء من العيون المائية ولا يخلو الامر من أحد شيئين اما أن تكون عيونها غارت وانقطعت بالكلية او تحولت مجاريها من جهة الى اخرى منذ مدة وبالقرب من تلك البركة اعمدة وهي بقايا مسجد قد عفى منذ مدة طويلة وقد شيد المسلمون مع التنظيم

مسجدا بقرب الهياكل الهندية وهذه الآثار مملوءة بالثعابين فكنت اشاهد من سائر الجهات الافاعى مولية تنجو بنفسها وتدخل فى اوكارها وشاهدت فى مدينة بنبور ثعبانا عظيم الحجم على حائط وكانت تدور حوله العصافير على شكل دائرة فكأنها مغرورة به كغرور الفراش بالنار فقتله جماعة بعكازة ثم قبضوا عليه من ذيله وصاروا يحركونه تحريكا عنيفا حتى تقايا من جوفه عصفورين كان قد ابتلعهما

وقد رحلت من مدينة بنبور الى مدينة وانيبورا ويتوصل اليها بواسطة غدران تزداد ماؤها فى السنة القابلة اعظم من زيادة العام الماضى ويصادف الانسان عدة عيون ذات مياه كبريتية وفى الغيطان حدود مرسوم عليها صور ويوجد منها عدة حدود منصوبة بجوار بعضها وعلى فرض انها كانت متخذة سابقا لبيان حدود الاملاك الخصوصية المتوارثة فليست الآن لهذا الغرض وبقرب مدينة وانيبورا اطلال مدينة عظيمة من المدن القديمة ولا يوجد فيها الآن شئ من العيون بل ولا اثر ماء اصلا وقد صعدت الى محل فيه شجرتان من اشجار التوت ولم يصعد معى أحد البتة فأقبل الىّ عما قليل خفيران فى غاية من الخوف والارتعاج بسبب دبّ كان قد خرج من موضعه وبقيت

آثاره ويوجد فى سفح اطلال تلك المدينة القديمة اطلال هيكلين هندبين أحدهما لم يزل محفوظا الى الآن وعليه نقوش نقص بعضها وانمحى بالكلية

وقد شيد المسلمون بجوار هذين الهيكلين مسجدين ومتى سار الانسان جهة الشمال وجد بحذاء الجبال فى وسط الساحل بقرب عين ماء مظللة بشجرة دلب قديمة نقشا سانسكريتيا واذا ارتقى بالمجاهدة والمكابدة فوق ذلك الجبل الشامخ المرتفع على شكل قنة وجد على سفحه صنما عظيما فاذا نزل بعد ذلك بواسطة السلم المنحوت فيه رأى كهوفا فيها صور رجال وتماثيل وكان قد وصف لى هذا المكان رجل هرم من علماء البندقية هذا ولم يبق عندهم رواية تدل على هذا المكان

وفى مدينة بيدجبيار نقش قدره سطران على مسجد وقد صار الان فى أسوأ حال من تقادم الزمن وتوالى الايام عليه فيتعسر على الانسان قراءة بعض حروفه ولا يفهمه الا مع المشقة والتعب

ويوجد بقرب ذلك المسجد مسجد آخر مبنى فى بركة بجوارها كهوف عميقة منحوتة فى الصخر وبابها مغلوق فيفتحه درويش مسلم موكل بها وحين دخلتها صرت أنفض الخفاش بعصاى وكانت تملأ القباب فتعرضت العساكر

السخية لمنعني من ضربها ولو كانت هذه الاساءة حاصلة مني في حق انسان لما أظهروا من أجله الرافة مثل ما ابدوه في حق هذا الخفاش

وأجل المدن بعد مدينة كشمير مدينة اسلام أباد ويصنع فيها كثير من الشيلان الكشميرية ويعتنون زيادة بالابسطة المسماة بانو وهي نوع من القماش الثخين تتخذ منه أهل تلك المدينة ثيابهم وبيوتهم مبنية بالخشب فوق قواعد من الحجر والاجر وسطوحها مغطاة بالطين والنباتات والازهار ويرويها عدة منابع منها اثنان كبريتيان وكذلك يرويها نهر جالوم المشيد عليه قنطرة من خشب وكل من هذه المدينة وأهلها ذوو سماحة كريمة

وجميع الوادي من كشمير الى مدينة اسلام أباد فاخر نفيس جدا وسهوله مملوءة بالغابات والتلال الجبلية ومروى بالعيون المائية القوية التي ينسرّ منها الطرف بعد ملاله من رؤية بلاد الهند العالية الغير المتنوعة فلذا أصاب من وصف مدينة كشمير بكونها جنة بلاد الهند ولا يخفى ما في شغف الهنود وولعهم الحاصل في شأن هذا الوادي اللطيف ومع ما قيل فيه من المدح والاوصاف الحميدة لا يفوق شيأ من اقاليم مملكة فرانسا الظريفة

وبالبعد بفرسخين من مدينة اسلام أباد تجد على سفح مرتفع آثارا فاخرة منحوتة بتصاوير على صورة الغورة والجبال التي حولها منعطفة عليها على شكل دائرة مركزها تلك الآثار وكلما سألت أهلها عنها يقولون انها آثار كان قد شيدها جماعة الكوروسية والباندوسية وهما اسما عائلتين من القدماء قد ذكرا في قصائد حماسية منظومة باللسان السانسكريتي فاستأصلت احجارها تفتيشا واحدا بعد واحد مع امعان النظر فلم أجد عليها شيأ من النقوش وهذا الاثر موضوع في حوش مربع وأبوابه فاخرة ومملوءة بالتصاوير وحيطانه مبنية بالاحجار المنحوتة الكبيرة والقاعة الوسطى التي في داخل ذلك الحوش صغيرة جدا بحيث لا يتوهم انها كانت معدة لملاقاة الناس وكذا جميع هياكل كشمير بهذه المثابة ويوجد زيادة على ذلك ثلاثة هياكل مشيدة في وسط بحيرة وهذا هو السبب الباعث على عدم دخول عامة الناس فيها بكثرة وهذه الهياكل تشتمل على اصنام بمقتضى روايات محفوظة عندهم

واذا هبط الانسان جهة الشمال الشرقي وجد مدينة مونون وفيها بركة مقدسة محفوظة بمساكن تعمرها الدراويش ويحفظ فيها كتاب الديانة المسمى غرانت واجمالا

هذه البركة مقدسة ايضا ومما يعد عندهم من عمل الخير الموجب للثواب كون الانسان يرمى لها بعض اشياء تتغذى بها وعلى البعد من تلك البركة بمسافة تجد مغارات محفورة فى الصخرة يدخل فيها الانسان بواسطة ابواب منحوتة على شكل مثلث ويوجد فى داخلها اشجار تسمى لانغا وهنالك مغارات اخر لا يدخلها أحد الآن ويقال انها متسعة جدا وكثير من العيون المائية تسيل وتجتمع فى محل يقال له چالوم فعما قليل يصير نهرا صغيرا تجرى فيه السفن

وفى مدينة ورناغ بقايا قصر كان قد شيده ملك يقال له جيها نغير ولم تبق منه الا قبة وسط حياض متكونة من انصباب مياه كثيرة فيها وفى وسط هذه الآثار صنم على صورة امرأة تسمى غانسه وقد وجدت فى طريقى صنما على صورة الساحرة المسماة برواتى

ويوجد فى هذه الجهة من الوادى كثير من البرك الصغيرة المتكونة فى عدة عيون ويعتبر كل من المسلمين والهنود تقديسها ويربون فيها السمك معتقدين أنه عيال الله فقلت لهم انا جميعا عيال الله ولم يمكنى أن انال الافصاح منهم عن العبادة التى تخص هذا السمك الذى يعمر تلك العيون

ويعدّون من الغريب عندهم كون حجر من النار وحجر من الثلج أما حجر النار فهو قطعة عظيمة من الصوان المسمى سيلكس واما حجر الثلج فهو فى مغارة مظلمة يوجد فيها ماء مثلج يبلغ عمقه نصف الساق ولا يرى فيها شئ آخر البتة وعلى فرض أن ذلك الحجر الثلجى موجود فيمكن أن يكون ثلجا منجمد ترتفع رأسه فى تلك المغارة وان مزاج هوائها لم يصل الى درجة بحيث تذيب الثلج المنجمد

وفى تلك الجبال كثير من نبات الهليون والتوت الافرنجى (المسمى بالدليك) وهما صنفان من اخر الفواكه يجهلهما سكان ذلك الوادى

وقد شاهدت فى طريق معدنين من الحديد كانا يستخرجان من الارض ولكن اذا اراد الانسان الدخول فى موضع هذين المعدنين لا يمكنه الوصول الا حبوا ولا يوجد فى ذلك الوادى ابنية ولا مجازات ارضية وفيه المعادن بكثرة فترى الرجال الذين يستخرجونها بمجرد ما طالت عليهم الاشغال فى حفر مسافة للاستخراج تركوها واخذوا فى استخراج غيرها

وفى جوانب تلك الجبال محال عظيمة الشهرة من جملتها موضع يعملون فيه مناسك حجهم فيهرع اليه كثير من الدراويش

فى شهر اب ولا بد للانسان من ان يمشى فوق الثلج عدة ايام وكنت قد اخبرت بالاخطار والمشاق الموجودة فى تلك الطريق فلما رأونى مصرا على ذلك آل امرهم الى ان امتنعوا من أن يأذنوا لى بالسفر فيها ولم ازل فى جميع هذه الطريق كالمسجون حيث كنت مجبورا على ان اقصر اسفارى على مشاهدة الاماكن التى وصفوها لى بوجه مخصوص ولم يكن احد معى من اهل تلك البلاد وذلك ان جميع الرجال الذين صاحبوا غيرى من السياحين ورأوا انهم لم يكتسبوا منهم شيأ اعتذروا عن ان يصاحبونى ومتى لم يكن مع السياح رجل معتبر من اهاليها تعذر عليه ان يقف على شئ من اخبارها حتى انه كان لا يمكنى ان اعرف اسماء القرى وايضا فكانوا يتجسسون على كلامى وافعالى ولو قليلة جدا ويخبرون بها حاكم تلك البلدة الذى يرسل الاخبار الجارية الى مدينة لاهور وكان يسلك فيها مسلك منشئ الوقائع حيث كان يكذب فيها الاجل ان يرغب من يطلع عليها فقد انتهزت فرصة لتحقيق كذبه من اناس اتوا ليصاحبونى

ثم انى رجعت الى كشمير بجانب الجبال الشمالية ومتى غشى الليل انتشرت الدباب والسباع فى السهول فلا بد من ان توقد نيران حول الخيام والخيول لطردها فاتفق ذات يوم

انا

اننا وجدنا بقرة قد افترسها نمر على البعد من خيمتنا بقدر خمسين قدما

وقد اطنبت في الكلام على الثعابين والوحوش الضارية لغرض خصوصي وهو أن السياحين الذين ساحوا قبلي في هذه البلاد انكروا وجودها بالكلية لئلا يشوهوا حقيقة تخطيطات ذلك الوادي الطريف العجيب الشهرة والافالثعابين التي توجد فيها كثيرة وخطرة جدًا واخبرني الشاه صاحب الذي هو محب لاهل اوروبا ان لدغتها تفضي الى الموت بعد مضي بعض ساعات وسألني عن دواء يعمل لمنع تأثير سمها واما السباع والنمورة والدباب فتدخل في داخل القرى وتفترس ما تجده من المواشي وفي مدينة كشمير مضرة اخرى عظيمة وهي وجود الدويدات الناشئة عن وساخة سكانها فانها تدبو في سائر الاماكن ويوجد خصوصا بقرب الجبال نوع من الذباب الصغير ينكب منه مقدار لا يحصى على الناس والخيول ولا تدع لاحد راحة منها والغدران الصغيرة يكثر فيها الدود المسمى بالعلق ومنها نوع يمكن ان يعد من الهوام السمية ويتاذى الانسان ايضا بالناموس الهندي الذي لا يطاق طنينه ولا لذعه وفي الغيطان وعلى الاشجار ايضا كثير من الوزغ السمي وهذه البلاد

رديئة الهواء جدا ففى البلاد الواطية منها يكون الانسان عرضة للعمى الدائمية حتى انى بل وجميع الرجال الذين كانوا معى لم ينج احد منهما وكذلك يكون الانسان عرضة لان يصاب بانواع الرمد الناشئ عن كثرة مياه البركة المنتقعة فقد صرت فيها مدة خمسة عشر يوما اعمى لا ابصر شيأ من جميع الجهات فلا يخفى عليك كما اسلفته ان ذلك الوادى ليس بالكلية عين الجنة التى ذكرها الخواجه برنه وزعم انه لا يجرى فيها الا أنهار من لبن وعسل ولكنه قد اقام زمنا طويلا فى مدينة دلى (ويقال لها دلهى) التى هى فى واد حار يابس ولا شئ ابهج للطرق من منظر وادى كشمير على العموم ومن منظر جبالها الشامخة المغطاة بالثلج وتلالها المخضلة بالآجام وفلواتها المروية بالغدران الصافية المياه والمغطاة بالخضراوات والازهار الجميلة

ولما رجعت الى كشمير اخبرت بوفاة الملك رانجيت سنغ وان عشر نساء قد احرقن انفسهن معه وذلك لأن النساء السيخية قد تعودن على هذه العادة الهندية التى هى ناشئة عن الحمية الدينية وتخمد نارها بتداول الزمن وبرهان ذلك ان الانكليز قد نجحوا فى ابطالها فى جميع البلاد التى انقادت لهم وبمقتضى الشرائع الهندية ان المراة اذا تزوجت بعد فقد بعلها تكون

مدنسة العرض فيحكم عليها على التابيد ان تقضى مابقى من عمرها فى العزلة والنفى

والسبب الباعث لكون النساء يلقين بانفسهن فى النار هو انه اما لكونهن يصرن مدنسات العرض ويقضين زمنهن بهذه المثابة اذا تزوجن اولما يتحققنه من السعادة الاخروية اولشدة تعلقهن بالمفقود فعند ذلك يتجملن باجمل الثياب ويتحلين بما يمتلكنه من الحلى الذى هو كسب للقسس ويفهم ببادئ الرأى ان تحسين القسس هذه الفعلة القبيحة وتشجيعهم لهن انما هو لاجل عودها بالمنفعة عليهم ولما مات نوينهال سنغ الذى هو حفيد رانجيت سنغ حضر الانكليز وخلصوا امرأته ونجوها من الاحراق

وبعد أن مكثت عدة ايام بالمدينة كالمسجون سافرت ثانيا لاطلع على الجهة الغربية من الوادى فوجدت فيها عدة هياكل هندية متفاوته فى الحفظ وكلها على الاطلاق مبنية على هيئة بنيان مدينة بنبور ومنها هيكل فى جزيرة صغيرة وسط بحيرة يحتاط به كثير من الاحجار على شكل جسر وعندهم آثار قديمة تدل على انه كان سابقا فى محل هذا الهيكل مدينة عظيمة ومحيط هذه البحيرة يبلغ عدة فراسخ وكل من سافر فيها يكون عرضة لهبوب الفرطونات

وعلى شواطئها من جهة الشمال جبل يخرج منه فى اوقات اصوات كأصوات المدافع وتزعم الاهالى انها تسمعها فى جوف الاراضى متى اقتضت القدرة الالهية تغيير الحكم فقد سمعوها قبل موت الملك رانجيت سنغ بعدة ايام وقد سمعوها ايضا مرة ثانية وقت انتصار الانكليز فى مملكة افغانستان عندما كانت الناس تلغط بان الانكليز يريدون الاستيلاء على اقليم پنجاب فحصل بعد ذلك بمدة قليلة موت الامير غوراق سنغ ابن الملك رانجيت سنغ وخليفته فعند تصادف هذين الامرين من الغريب ومياه تلك البحيرة لطيفة جدا حيث لم يشم منها رائحة الطين المنتنة التى تشم من بحيرة كشمير وعلى شاطئها نبات يسمى سانغراه وهو نوع من جوز الماء يتقوت به فقراء الاهالى ويدخل على الخزينة منه مبالغ جسيمة من الرويبات (تبلغ ٢٥٠٠٠٠ فرنك)

وفى مدينة بوطون هيكلان آخران بجوار بعضهما وهيكل آخر فى مدينة تيغور داخل حصن بل هو الحصن نفسه

وبالجملة فيوجد هيكل آخر بقرب مدينة برموله على شواطئ نهر جالوم فى واد ضيق وسط جبل ذى قنه

وملان

رملا آن بصخور يعلوها غابة من اشجار الراتنج وليس في هذا الهيكل شئ البتة من التصاوير وبحسب الحدث والتخمين ان احترام المسلمين له انما هو لتجرده عن التصاوير والآن تظلله بأغصانها اشجار صغيرة وقد اخبرني رجل هرم من العلماء انه كان يعرف سابقا في الجبال المجاورة لتلك البقاع هيكلا ونقوشا قديمة غير أنه لم يذهب اليه احد من مدة طويلة وانه لا يمكنه ان يهتدي الى الطريق الموصلة له وقد وصف لي بوجه عام نقشين كانا بقربهما فوجدتهما في وسط غيط أرز بعد طول البحث والتفتيش وبجوارهما سبع عيون صغيرة ويسمى محلها سات ريشي وبقرب فوتيغور كثير من حدود الارض مرسوم عليها صور ويفصل خطها جبال مظللة بالاشجار وينحصر في واديها اودية صغيرة ويوجد فيها بقايا مدينة عظيمة جدا وصور آلهة هندية لا سيما صورة آلهة الحرب ففيها حجر ضخم منتصب على صورة الهيم المسمى تجاطور موغا

ويتصرف نهر جالوم بقرب مدينة برمولة من محل ضيق جدا فيجري مع القرقعة فوق الصخور الجسيمة ويقتلع منها قطعا من شدته ويوجد في نواحي برمولة بتجاويف الجبال كتبان رمل .

وبين مدينتى كشمير وبرموله مدينة تسمى صوپور وفيها حصن مبنى على طرف قنطرة من خشب وقد منعنى خفير الحصن من الدخول فيه بأمر من حاكمه فتشاءمت من تلك الاساءة ولكن عما قليل عرض لى ما يزيل الهمّ والترح ويجلب السرور والفرح وهو أن حاكم كشمير ارسل الىّ كتابا محبوبا للنفس وفيه يأذن لى بالاطلاع على خط كامراج والاولى ان يقال انه حصن مشهور فى هذا الوادى جلس فيه الملك رامة للاستراحة بعد فتح جزيرة لانكا (اى جزيرة سيلان) وكانت المنة فى هذه الاجازة لجناب الجنرال وانتوره حيث كنت فى فكرته دائما فكتب للحاكم فى شأن ذلك ومع هذا فانه لا يبعد عليه ان يكتب لى قبل ذلك بمدة

وخط كامراج كثير الاشجار ويرويه نهير يسمى باسمه ويفصل الانسان به لما فيه من التلال الجبلية والاودية الصغيرة الشبيهة بالتيه ويتغير فيه مزاج القطر فى كل وقت حتى انه فى مرحلة واحدة نزل علىّ المطر الحار ثم الثلج المذاب وقد نزلت فى شهر لَب بأرض مغطاة بالثلج فوجدت على البعد منها بمسافة قليلة مزارع الارز وشاهدت اجتناء كروم العنب بعد نضجه ووجدت فى مسيرى انسانا كان معلقا فى شجرة غير أن الدباب حلقته ولم تبق غير الخيط معلقا فى تلك الشجرة

وابقت

وابقت لى هذا المنظر البشع وبعد مضى خمسة ايام وصلت الى محل المنج ويوجد فيها حجارة ضخمة فى سفح الجبل منظومة الوضع يفهم من انتظامها انها عمارة متقونة الصناعة وهى مسكن الملك رامة وبجوارها مسكن الشعابين المتخذمن الاحجار الغير المنحوتة وبعد هذا المسكن بقليل محل بقرب حوض متكون من عين ماء ويقال ان هذا المحل كان مسكن الملكة سيتا (زوجة الملك رامة) وخفيرها المسمى لاكشمانه وهذه الاثار مظللة باشجار ابى فروة والراتنج ولم يزل ثم عصفور يحوم حولى فكأنه يذكرنى تاريخ مصايب الملكة سيتا واذا صعد الانسان قليلا جهة اليمين فى العابة وجد مسكن قرد يسمى انومان بقرب عين وارضه عارية عن النباتات ولا يشاهد بها الا صورة هذا القرد الشهير ومسكن بالارامة على قنة جبل شامخ يصعد اليه بطريق منحدرة وذلك أن هذا الجبل بعد أن يصعد الانسان عليه قدر مسافة معلومة يجده كله على شكل قنة فارتقيت على ذلك الجبل متمسكا بالدغالات والدويحات فوجدت هذا مجرد صخرة يقال انها كانت سابقا ذهبا فهذه الصخرة الحقيرة لا تستحق هذا التعب الذى كلفت به نفسى فى الصعود اليها غير أنه جبر خاطرى منظر بهيج جدا قد لاح لناظرى وذلك أن الانسان

متى صعد فوق تلك الصخرة رأى من احدى جهاتها جميع وادى كشمير ومن جهة اخرى جبالا تمتد امتدادا بعيدا يعلوفوقها ذروة من الثلج يقال لها ايماليا وبالقرب من تلك الجبال عيون تسمى كريشتا كانغا

وقد مكثت هذه البلاد زمنا طويلا منقادة لحكم الملك رانجيت سنغ ولم يتفكر اهلها فى الخروج عن طاعته بعد موته وكنت اتعجب من اهل تلك الجبال حيث كانوا يثبون من صخرة الى اخرى مع ما كانوا يلبسونه من الثياب السابغة ففى الطرق الصعبة الملك كانوا يحملونى معهم حال المرور

وهنالك انتهت اسفارى فى ذلك الوادى ولم انظر الا نصفه

وقد منعتنى العوائق التى لازمتنى فى اسفارى بهذا الوادى عن أن ارسم خرطة وادى كشمير وكان يمكننى ان أأخذ صورتها مدة الاشهر الاربعة التى اقمتها فيها واظن ان اخبارى بقصد رسم خرطتها كان هو المانع من رسمها فان حاكم لاهور يرغب فى ابطال رسم جميع التخطيطات التى تبين منافع ذلك الوادى لأنه كان يخشى من ان يرتب عليه جزيه جسيمة اكثر من التى يدفعها وكذا حاكم كل خط بهذه المثابة يود تعطيل تخطيط واديه بالنظر لما فوقه من الحكام فبناء على ذلك

لم استفد كل ما يتعلق بالصنائع وانما يصنع فى مدينة كشمير ألطف ورق يشتغلونه فى جميع بلاد الهند وهو نوع من الورق المصقول الجميل جدا ولم يؤذن لى فى الاطلاع على ورشته بل اذن لى بالاطلاع على معامل الشيلان * والماهرون من صناعها يكتسبون كل يوم اثنين او ثلاثة من النقود المسماة اناس اعنى ستة صلديات تقريبا وتدفع لهم اصناف بقدرها بدلا عنها وهم تحت تصرف حاكم الوادى دون غيره والرسوم والتصاوير الغريبة التى نشاهد فى الشيلان الكشميرية منقوشة بمجرد الفكر فقد شاهدت اشهر رجل عندهم فى نقش الشيلان يسمى محمود چو يرسم عليها التصاوير امامى فكان يرسمها بسهولة حتى انى لم ار الاجريان قلم الرسم على الشال فلا شئ من ازهار وادى كشمير ونباتاته الا وهو مرسوم فى تلك التصاوير ومع ذلك فيعجزهم عن ان يصفوا شيأ من الطبيعيات اياما كان يمنع من ان يظن فيهم تصوير شئ على ماهو عليه واما الشيلان المنسوجة لاحتياج الاهالى فيرسمون فيها اشجارا وطيورا وحيوانات وهى على العموم غير متقنة الصناعة وغير ممتازة بالكلية واذا قابلت صور الابسطة المفروشة فى القصور القديمة بصور هذه الشيلان الحادثة رأيت الصور القديمة من غرائب الصناعة التى ينسج

على منوالها ولكن للهنود قريحة غريبة فى تنويع رسم الخطوط ولهم دقة وذوق سليم فى شغل الادوات من الاخشاب واما الاخبار التى بلغتنى فى شأن تجارة الشيلان الكشميرية فهى مناقضة حتى انه لا يمكنى ان اصدق فى شئ منها البتة فيجب على الانسان دائما ان لا يثق بجميع الاخبار التى يحكيها اهل كشمير فانهم اكثر خلق الله كذبا حتى انهم من غير خشية يعضدون اثبات امور يمكن ان يثبت الانسان كذبها عيانا ويباع الشالان من اظرف الشيلان الطويلة فى مدينة كشمير بثلاثة آلاف فرنك ولا بد بعد دفع هذا الثمن من ان يجمرك عليه وقت اخراجه من تلك المدينة بل وفى محال اخر حتى يصل الى اوروبا ومن البديهى أن التجار لا يدفعون فيها هذا المقدار الجسيم ويوجد فى مخزن مدينة امرتسير شيلان احسن واطرف من شيلان كشمير نفسها

وارض مدينة كشمير خصبة جدا ويوجد فى وهدتها بقعة عميقة يبلغ قدرها خمسين اوستين قدما متكونة من طين اسود وارض الوادى تزرع كل سنة مرتين الاولى تزرع قمحا فى شهر يوليه والثانية تزرع أرزا فى شهر اقطوبر وقد لا ينتج زرع الارز فى بعض الاحيان بسبب البرد الذى يصيبه قبل بدو صلاحه وكل غيط من الغيطان المزروعة يرويه عين ماء حتى

ان الاراضى التى لم تسق ولو كانت عظيمة الخصوبة لا يزرع فيها شئ وتنبت فيها جميع الاشجار المثمرة الموجودة فى اوروبا ما عدا شجرة الزيتون واما عنبها فطريف جدا لا سيما النوع الخالى عن البزر ويستخرجون منه النبيذ واما النبيذ الذى اهدانى به الحاكم وشربت من جنسه فى ديوان صغير من الدواوين الهندية فطعمه كطعم النبيذ المكثر للدم فى مجارى البدن وهو كثير التحدير ويحب شربه الاقوام السيخية حبا شديدا حتى ان حاكم الوادى يصير بعض الاوقات عدة ايام متوالية سكران من كثرة شربه واما العنب والجوز اللذان يستخرج منهما الزيت فيحتكرهما الحاكم لنفسه وكل من اراد ان يأخذ شيأ من ذلك الزيت فليعرض له فى شأنه وفيها مقدار كثير من اشجار الجوز والزجراج والصفصاف وبعض اشجار من الداردار وشجرة الدلب المسمى شونار خارقة للعادة فى الكبر والغلظ ولا يوجد فيها اشجار البلوط والران فجلبهما الى هذه البلاد يعد من جملة الهدايا وقد احدث فيها الحاكم المسمى شاه صاحب زراعة البطاطس فى بساتينه ولكن اهل تلك البلاد لم تلتذ بأكله ويعدون القنب والشوفان من النباتات البرية ولا يزرع الكتان الا لقصد تحصيل بزره لما انهم يستخرجون منه زيتا

ووادى كشمير هو فردوس الهند ستان غير أنه ليس كذلك بالنظر الى سكانه الفقراء الذين يعمرونه فان اللسان يقصر عن ان يعبر عن حالتى الفقر والظلم اللذين يستوليان على الفلاحين وارباب الصنائع هنالك فلذا تجد كثيرا من الشحاذين يتمكنون من تحصيل قوتهم الضرورى بسؤال الصدقة اكثر من ان يكتسبوه من الاشتغال بحرفهم وصنائعهم التى يعرفونها وكانت تلك البلاد حينئذ خالية من اهلها بسبب القحط الشديد الواقع فيها من نهب ملك لاهور المسمى شيرسانغ المستولى عليها الآن وقد فر معظم اهلها الى ارض لودیانة ثم انه جر على اهل مدينة كشمير حين كنت فيها من أن يرحلوا عنها الى اماكن اخر وكل من ابى يعاقب عقابا شديدا

ويكثر فى هذا الوادى البرك المشتملة المياه حتى ان الانسان يكون عرضة فى السهول لأن يصاب بانواع الحمى والرمد المستمرين وان سكانها عرضة لأن يصابوا بالغدد الكبيرة المعروفة بالسلع ومن الهنود طائفة صورة وجوهها كوجوه اليهود وهى وان كانت مستحسنة بالجمال واللطف الا ان صور كثير منهم تصير غير مستحسنة بسبب مايعلوها من البلادة والحماقة وفيهم طائفة اخرى ذات وجوه قصيرة الا أن سيمتهم

تدل

تدل على النباهة وزكاء المفهومية وفيهم اناس زرق العيون وشعورهم تميل الى الشقرة ومن العجائب ان فيهم اناسا على صورة الزنادقة يظهرون خلاف ما يبطنون من الدين واناسا مفقودة جميع حواسها من جبال البرنات (بشمال اسبانيا)

وتخطيط وادى كشمير جليل الفائدة بالنظر للعلوم الطبيعية ومهم ايضا بالنظر لمن يريد تعليم آداب الهنود اللغوية ومعرفة الآثار القديمة حيث يوجد فى جميع الاماكن عمارات قديمة وآثار وبقايا الهنود واماكن الحج المنسوبة للأحقاب الخالية ويوجد فيها نقوش وشخوص قديمة ويوجد فيها ايضا من غير شك نقوش على ألواح من النحاس وسألت اناسا من الهنود عن شئ منها فاستبان منهم التعجب والحيرة من سؤالى حتى فهمت من حالهم انه لا مانع من أنه يوجد عندهم شئ منها فأجابونى بأنه كان عندهم منها اشياء سابقا ولكن قد اخذتها طائفة البابان ورموها فى نهر جالوم ولم يمكنى ان اظفر بحقيقة ذلك لما يظهر منهم ان كتمانه عنى من التدقيق فى الدين وبحسب الطبع اذا سألهم الانسان بدون واسطة عن شخوص نفيسة من الذهب او الفضة لا يعطون شيأ منها خشية ان تنغص عليهم الحكومة

حيث يحطر ببالها انهم يمتلكون اموالا من جنسها ولكن فيه بعض اناس منهم الآن يعرف ان الافرنج يرغبون في تلك الشخوص والاحجار والنقوش القديمة فيجمعون من غير شك عن تحصيل شئ منها ليستميلوا به السياحين وليكونوا مقبولين عندهم

وبالجملة فكان على رسم خرطة وادى كشمير لانها من الاشياء النافعة لا بالنظر للجغرافيا فقط بل لتاريخ الهند ايضا حيث انها تنفع لتوضيح بعض امور يشك فيها

واما اللغة التي يتكلم بها اهل مدينة كشمير فتكاد أن تكون عين اللغة الهندية القديمة وكنت افهم معنى الكلمات المفردة بطالعتي لشئ من كتب تلك اللغة وعندهم كتب شتى ليست من غير شك الا تراجم كتب قديمة ولكن اذا اراد الانسان ان يستأجر مدرسا لتعليم هذا اللسان وان يحصل كتبا يشتريها وان يجازيهم على سائر خدمتهم له ولو قليلة فلا بد له من مبالغ جسيمة من الدراهم ويلزم له ايضا اشياء متنوعة يهاديهم بها فات من عادتهم الاختلاط مع الغير بواسطة الهدايا وحيث كنت عاريا بالكلية عما يصلح لأن يهدى به اليهم فلم يمكني ان اسأل احدا منهم قضاء حاجة ما ولو صغيرة وكانت ارباب حكومة مدينة لاهور قد أعانت اعانة كلية السياح

جا كمونت والسياحين الاخر الذين ساحوا بعده فى بلاد الهند وايما انا فكذلك نلت منهم اسعافات ومساعدات كثيرة لولاها لم يتيسر لى الاقامة ولا المعيشة بمدينة كشمير ولا بأس أن اذكر لك ثانيا سبب ما اوقعنى فى ورطة هذه النقلة الى هذا الوادى وذلك انى لما وثقت من سوء حظى بأقاويل السياحين الاقدمين وبحكاية أحدهم وهو راجع من مدينة كشمير الى مدينة لاهور وبالمواعيد المزخرفة الكاذبة التى وعدنى بها شخص محترم جدا ممن يسكنون مدينة كشمير اهملت فى أخذ الادوات الضرورية والاحتياطات المعاشية اللازمة لاتمام تلك السياحة التى شرعت فيها

ولنذكر لك انه لا خطر على السياح فى جميع بلاد الهند وذلك أنه متى قوبل بالاحترام الجزيل والاكرام الجليل من قبل ارباب حكومتها كان دائما فى غاية الامان ويحسنون معاملته مع الاكرام فان اهل تلك البلاد المشرقية فى غاية من الادب والبشاشة وقد زعم بعض الافرنج أن الادب وحسن الخلق ناشئان عن تسلطن النساء على افيدة اهل جهاتهم التأنسية وان اعظم الملل ادبا انما هى الملة التى يغلب عليها ذلك التسلطن والنساء المشرقية لا يخرجن من بيوتهن وليس لهن نفاذ كلمة على الرجال ومع ذلك يعجز الوصف عن ما عند اهل الرتبة

العلياء منهم من اللطف فى افعالهم والظرف فى مجانساتهم فيبدون بالترحيب كثيرا عند الملاقاة ويعتنون زيادة باستماع المتكلم وباجابته بألفاظ عذبة فلا يتكلمون ابدا بشئ من عبارات الحنق والانفعال ولا من العبارات الدالة على الخشونة وسوء الخلق

وانما يجب على الانسان ان يحترس من الوثوق بألفاظهم العذبة ومواعيدهم المزخرفة وان لا يثق ايضا بألفاظ ومواعيد الغرباء الذين خالطوهم زمنا طويلا كما استبان لى ذلك منهم بالتجربة

الباب الثامن

فيما يتعلق برجوعى الى مدينة لاهور وبغدران تانسير وبالخان المعد لنزول الغرباء فيه وبمدينة دلى وبآثارها القديمة وبالاثر المسمى كوتوب وبمدينة فيروزشاه لات وبالكهوف وبطائفة الباراياس وبالفقراء الذين يأكلون رمم الادميين وبمدينة لوكنوو وبمدينة قسطنطيا والاصنام اليونانية والاصنام الحادثة وبتربية الطيور ومقاتلة الفيلة وباللصوص المسمين توغ وبمدينة فيزاباد وبمملكة اود وبمدينة سلطانبور وبالرياح المحارة وبنزول الامطار الدورية وبقصائد الشاعر المسمى ريغ ويدا واخلاق وطباع

اهالى

اهالى اقليم بنغاله الواطى وبرجوعى الى مدينة قلقوطة
قدسافرت من مدينة كشمير فى خمسة وعشرين من شهر
اوقطوبر وكنت مجبورا على أن اقطع تلك الطريق بعينها
التى سلكتها اولا وكنت اتضرر من سلوكى هذه الطريق اولا
وثانيا غير أن مرورى بهذا الوادى كأنه حادث لم اره غير هذه
المرة فان مرورى بتلك الطريق سابقا فى زمن نزول الثلج
وانجماده والآن حال تقطعه وذوبانه ويبس مجاريه فتمكنت
من عمق الاماكن الغويصة التى كنت قد مررت بها حالة
تغطية الثلج لها فشاهدت مدينة لاهور ثانى مرة وكانت
اذ ذاك فى غاية الهدء والراحة وكان قبل ذلك ببعض ايام
قلائل قد ذبح نديم الملك امام عينيه فى قصره المسمى دربار
وكان فيها اذذاك كثير من الانكليز منهم من هوذاهب الى
مدينة قابول ومنهم من هوراجع منها وقت ما كانوا فى شدة
ظفرهم بأعدائهم وكانت وقايعهم الانكليزية تتكلم فى شأن
الانبذة اللذيذة التى كانوا يستخرجونها فى مدينة قابول
ومقتضيات الحوادث الراهنة لاتمكننى من الاطلاع ثانيا
على اقليم بنجاب فكنت اتسلى عن ذلك بتفكرى فى عدم
الوسائط التى توصلنى
وقد ارتحلت من مدينة لاهور فى اخر شهر نومبر وكان

وقتئذ الملك غائبا غير أن حضرة الجنرال كورت قدمني بنفسه امام الوزير الاعظم فأنعم علي بكسوة تشريف أحسن وأجود من الكسوة الاولى وسئلت هل حصل لي السرور من ذلك الوادي وهل عوملت فيه بأحسن المعاملات ثم سئلت ثانيا هل حصل لسكان ذلك الوادي سرور من حاكمه وعند استماعي الجنرال كورت وهو يقول لي هذه العبارة اما من جهة هذا الغرض الاخير فلا بد من أن تجيب عنه بحقيقة الحال بلا تمويه حصل عندي دهشة وتعجب فقلت له اني سمعتهم دائما يثنون عليه الثناء الجميل وانا لا يمكنني أن اتشكى منه ابدا لان الحاكم لا يمكن أن يكون كفيلا بالمضرة والاساءة التي كابدتها في بلاده فاستحسن مني هذا الجواب وقبلته نفسه أحسن القبول لما فيه من الاتيان بالصواب

ولم يكن في ارتحالي من مدينة لاهور الى مدينة لوديانة فائدة حيث وجدت بلادها مثل البلاد التي جئتها قبل ذلك ببعض اشهر مع شدة الامل والرغبة فلم اخرج منها على طائل

وكان قد اشتد البرد في لوديانة من مدة اشتدادا عظيما ومع ذلك فقد بت عدة ليال تحت كبد السماء من غير خيمة فكنت

اجد فى صبيحة النهار برنوسى منشورا بالثلج المتراكم فوقه وصارت المياه ثلجا منجمدا وكانت الارض قد انجمدت واهتلأت الاعماق والحفر بالثلوج وكان يلزم لى ان اسعى واجتهد كل الاجتهاد فى عمل برنوس آخر مثله فى مدينة اغرى ومن العجيب ان الجمال تبيت الليل بلا وقاية تحفظها من البرد ولا يظهر عليها التأذى بما تقاسيه من شدته اما السياح الذى يرغب فى الاطلاع على الآثار القديمة الهندية فانه لا يجد فى طريقه الموصلة من لوديانة الى مدينة كورنول شيأ من تلك الآثار يكون جليل الفائدة الا بركا تسمى بركة تانسير وهى واسعة جدا وعليها قنطرة قديمة متصدعة توصل من البر الى جزيرة فى وسط هذه البركة كان يقعد فيها سلطان مسلم ويأمر باطلاق البارود على الهنود الذين يغتسلون فيها ويشرف على هذه البركة من جهة الغرب تل ممتد وكانت تانسير هذه محل اشتعال نار الواقعة العظمى التى انعقدت بين العائلة الكوروسية والعائلة الباندوسية وانتهى الامر فيها بتسليم دولة الهندستان واقول كما قال الشاعر بعد التعريب نظما

هذى البلاد وصلتها ولطالما * كرت بها الكوروس والبندوس
كم اضرموا نار الوغى فيها وكم * وبها استوى المغمور والمغروس

وكذا ملوك الارض طراكم بها * عقدوا وغالم تحتمله طروس
ولاشك ان هذه البرك العجيبة واشجار البنيان التي تظلها
والبراهمة المحترمين ذوى اللحاء الشائبة الذين يعمرونها والتل
الذى يشرف عليها الذى كان من غير شك محل محاطبة كرشنه
مع ارجونه قد القت فى ذهنى تصورات فى شأن سعادة تلك
البلاد مع ما قاله باغا واجيثا من الاشعار اللطيفة فكنت
اومل ان اجد بواسطة السؤال والتفتيش فى الاماكن
القديمة بعض نسخ باقية من القصيدة المشهورة المنظومة فى
منظر تلك البقاع ولكن ما حصل لى فى شأنها من الغرور
لم يمكث الا قليلا وذلك ان هؤلاء البراهمة الذين يوجدون فيها
مع انهم اعظم الخلائق جهلا لا يجيبون من يسئلهم عن شئ ما
الا بطلب الاحسان لاغير

ومدينة كورنول محطة واسعة تقيم فيها العساكر وما بين
مدينة لوديانه وكورنول من البلاد يحكمه رؤساء من
الهنود مستقلون مع الاتحاد مع حكومة الانكليز وهى بلاد
كثيرة الاشجار ويكثر فيها شوك القتاد واللصوص التى
كادت أن تكون هذه البلاد خربة بهم فبينما كنت
امر بغابة اشجار اذ صادفت ستة فرسان متسلحين بالرماح
يزعمون انهم خدم حاكم مدينة باتياله فسرت معهم مدة من

الزمن

الزمن فلما رادونى وتحققوا من حالتى بمجرد النظر انفصلوا عنى وتأخروا فى سيرهم ورآى قليلا واخبرت انهم بقرب تلك الغابة قتلوا سواحا ومع ذلك يندر تعدى هذه اللصوص على سياحى الافرنج بل لا يوجد بلاد لسياحى الافرنج فى غاية الامن والطمأنينة مثل بلاد الهند وذلك لكون ارباب الحكومة الانكليزية قد سلكوا فى هذه البلاد مسلك الحكام الهندية اعنى فى ترتيبهم لمشايخ البلدان المسمين تانادار فى أن يقوموا بدفع جميع السرقة التى تحصل فى بلادهم

وفى طريق هذه البلاد يشاهد الانسان خليجا انشاه الشاه ناهور وخانات عجيبة جددها ملوك المغول وهى مسورة باسوار عالية ومحصنة بابواب متينة فهى محفوظة من ان يسطو عليها احد بل ان سطوة الحاكم الانكليزى تفوق هذه الاسوار فى الامن والحفظ وبمرور الانسان على البلاد الطائعة لقمبانية الانكليز يعرف قدر الادارة الانكليزية فى بلاد الهند وليس لسكان هذا الوادى ما يشغلهم من الاوهام الفاسدة عن أن يبصروا حقيقة هذه الخيرات الجليلة ومع ذلك فمن اطلع على تلك البلاد لا يمكنه حجز نفسه من أن يتذكر مع التأسف امر الدولة القديمة المندثرة التى تدل على زوالها بابقاء تراتيب عظيمة ومدن ظريفة وكثير من العمارات

الفاخرة

وبين مدينتى كورنول و دلى يوجد ثغر بلاد الهند الانكليزية المرتب فيها ديوان الجمرك وأهل هذا الديوان لا يكشفون غالبا على امتعة الافرنج الغير التجارية

وقد وصلت الى مدينة دلى التى لم يمكنى الاطلاع عليها فى ذهابى فوجدتها اكثر مدن الهندستان عمارة قديمة منها ما ينسب للهنود ومنها ما يعزى للاسلام واشهر هذه الآثار اثر يسمى كوتوب وهو عمود اشمخ واطول الاعمدة الموجودة وبجواره حوش مربع مصنوع من صفوف اعمدة باقية عليها آثار اشكال وكذلك بعض الاحجار الساقطة من حيطانه العالية وفيها ايضا صور آلهة هندية وفى وسط هذا الحوش دعامة من النحاس الاحمر مكتوب عليها علوا بان اصليان قد اخذت صورتهما بالطبع والنسخ وأما العامود الاكبر المسمى كوتوب فهو متكون من احجار وردية اللون مخلوطة ببعض احجار بيضاء ومملوء بالنقوش القديمة الغريبة وكذا ابواب ذلك الحوش الذى فيه هذه الدعامة

ويوجد فيها اثر آخر غريب جدا وهو صنم فيروزشاه على سفح جبل وسط آثار رديئة الشكل وعليه نقشان واضحان الاول الذى فسره الخواجه قلبروق مكتوب بحروف دوا باغاريه

وكلها

وكلها سهلة القراءة ماعدا بعض احرف فى الآخر وكان قد نقله
فى كتابه مستوفيا
فنقلت صورة النقش الآخر المطبوع بالحجر
وبجوار هذا الصنم يشاهد من جهة آثار مدينة قديمة
وعامود كوتوب ومن جهة اخرى المسجد الاعظم والقصور
التى فى مدينة دلى الجديدة وهذه المدينة فاخرة ايضا بالنظر
الى كل من آثارها القديمة وعماراتها الجديدة ولا بد من أن
توقع فى قلب الناظر حيرانى شان الافتخار الدنيوى بعمل المآثر
الجليلة ولم يزل امبراطورها يلقب نفسه بسلطان السلاطين
كما كان يلقب به فى زمن تحكمه على الهندستان بأسرها
وعلى مدينتى قابول وكشمير وليس هو الآن الا عاملا من
جملة عمال القمبانية الانكليزية وقد رأيته فى اكبر عيد
من اعياد المسلمين التى ينبغى له أن يظهر فيها الفخر والابهة
صحو با بخفر قليل جدا فى هيئة رديئة فلبث برهة من الزمن
بقربه فرأيته قد وضع باطن كفه فى يد رجل انكليزى وبقرب
المدينة بمسافة قليلة يوجد قصر كان قد استعمل مدة
من الزمن رصدخانة وولجت فى غار مظلم يزعمون أنه يسكنه
شيطان فرأيت انه يعمره ابن آوى والخفاش التى كانت تطير
من أوكارها وتصدمنى فى وجهى فحملت المصباح بنفسى

وولجت فيه امام من كان معي ولم يمكني أن اغلب على عقل خادمي ليدخل معي ويقتفي اثري فيه فرأيت داخل ذلك الغار كلما سلكت فيه يضيق شيأ فشيأ حتى وصلت الى مكان لا يستطيع الانسان ان يتجاوزه ولو حبوا وطيران الخفافش في هذا المكان المظلم وتعمير ابن آوى احدث اصواتا مخيفة صالحة لأن تلقي في عقول هؤلاء الهنود السيئين الاعتقاد الرعب والفزع ولم يجتهد أحد في ان يدخل الى انتهاء هذا الغار ويوجد في جميع قصور اهل دلى مجازان ارضية مثل ذلك الغار معدة لأن تدخل الهواء الرطب في الاماكنة الداخلية من الديار وكنت آمل بالولوج فيها ان اجد قاعة كالقاعة الارضية التي توجد تحت حصن مدينة الله اباد المستودع فيها آثار من آثار عبادة الهنود الدينية وكان من سعادة حظي ان خرجت من ذلك الغار الارضي من غير أن تلدغني العقارب او الثعابين

فبعد أن اقمت شهرا في مدينة دلى عدت الى السياحة ثانيا فوجدت خيمتي التي استودعتها حال ذهابي لقصد تخفيف اثقالي لاجل سرعة الانتقال الى مدينة لاهور فنفعتني هذه الخيمة نفعا عظيما وكنت حينئذ قد عرفت تلك المدينة ولغاتها وتمتعت فيها مدة اقامتي بأطرف آخر ايام

سياحتي ثم سافرت الى مدينة دلى وقت تبلج الصباح وسرت حتى وصلت المحطة ونزلت فيها فوجدت خيمتي منصوبة وكذا اكلي وسفرتي وكتبي حاضرة وكنت كل يوم انزل في هذه الخيمة ببلاد جديدة وكنت في المساء احظى بإقبال اهل القرى عليّ لقصد الزيارة والتسامر معهم حيث كانت هذه العادة في السياحة هي المعتادة للسياحين من الافرنج في تلك البلاد وان كانت هذه العادة اطول العادات الا انها أليق واقل تكلفا من غيرها ولا سبيل الى استفادة اخبار في شأن تلك البلاد الا بهذه الوسيلة وانما يتأسف من كون تلك الاخبار غير عظيمة الاهمية وذلك لأن اهلها لهم رغبة عظيمة في استماع الاخبار الاجنبية دون ان يخبروا بشيء مما ولما علم بعضهم من اتباعي أني قوبلت بأحسن مقابلة من الحكام الانكليزية هرعوا اليّ لكي يسترجوني في ان اكون واسطة عند الحكام ومع ذلك فلم يكونوا الا اناسا مجردين عن الاشغال من اهل القرى فيقصدون بالوفود الى خيمتي مجرد التريض وبزيارتي مجرد انقضاء الوقت فكانوا يجلسون أمامي ويشخصون بأعينهم اليّ واذا ابتدرتهم بالخطاب انصرفوا عني بغير جواب وكنت اهتم بضرب خيمتي في جوار مساكن البراهمة والدراويش من الهنود

وان لم تكسبني مجاورتهم فوائد كثيرة فكانوا يستنكفون عن مخالطتي لعدم اكتسابهم مني شيأ من الرويات وكنت اسمعهم يذكرون مدة ساعات متوالية بعض كلمات مفردة ينطقون بها من الانف بالعنف ويرفعون بها اصواتهم حتى لا يجد الانسان سبيلا الى النوم وبدنو الانسان وقربه منهم ومن مساكنهم يقف على تفاصيل معيشتهم القديمة وعوائدهم واخلاقهم المقررة في الكتب ومنظر هذا الوادي بل وسائر الحوادث اليومية يذكر الانسان باحوال بلاد الهند القديمة وباشعارها التي يسردون في ضمنها حكايات فكنت اسمع تواريخهم المستطيلة الممزوجة بحكايات أخر يتولد عنها بالمناسبة تواريخ جديدة وهكذا كما في الكتاب المسمى هيتوپادوسا ومتى انتهت الحكاية سئلوا انفسهم عن فهم ما قالوه ولا يجاوبون دائما الا بعدم الفهم ولا يهتمون بالاصغاء للمتكلم وفي الغالب ينام كل من المحدث والسامع

وقد شاهدت في بعض الاحيان عدة بيوت خربة ومتباعدة عن القرى فسألتهم عن سكانها فألفتوا عني وجوههم لفتة كآبة ولم يجيبوني بشيء ما ففهمت أن سكانها هم الطائفة الباریاسه الذين يقيمون مدة النهار في تلك البيوت الصغيرة

الرديئة المتخذة من الطين ويخرجون منها في الليل ليبحثوا عن ما يقتاتون به من الحيوانات الميتة ولا شيء اغرب واقبح من هؤلاء الناس المحتقرين ذوي الثياب الرثة الذين يعيشون وسط القاذورات والاوساخ وبحسب الظن انه يوجد اناس اغنياء من تلك الطائفة فانك تجد اناسا ممن اضاعوا حرفتهم والتحقوا بحرفة اخرى محجورة عليهم يعودون الى طائفتهم بواسطة مبلغ يدفعونه من الدراهم

وقد سمعت من اناس أن الدراويش الهندية تقتات برحم بني آدم ولكني لم اشاهدهم البتة ولم يخبرني احد ممن يوثق بكلامه بهذه الفعلة الذميمة المضادة بالكلية لقوانين البراهمة واخلاقهم اللطيفة وعندي ان عزو ذلك لهم ليس الا محض اختراع نمية من المسلمين

وقد ذكرت فيما مر صورة ما يلزم من المصاريف لهذه الرحلة على وجه التفصيل الكلي والآن قد جربت شدة لزومها للسواح فطالما تأسفت من كوني فقيرا لا استطيع ان استأجر احدا من البراهمة او الهنود يرافقني ويسهل لي استكشافاتي ومطالعاتي في كتب الهنود

ومن اغرب المدائن الهندية مدينة لوكنو وهي الآن تخت حادث لمملكة اود وهذه المدينة تنقسم الى مدينتين

قديمة وجديدة اما المدينة القديمة فهي كبقية المدن الكبيرة ببلاد الهند يعني انها تشاهد من بعد أنها ذات منظر بهيج بسبب القباب المذهبة المشيدة في عماراتها ولكن في داخل هذه المدينة حارات محدودة بحيطان مظلمة وحوانيت صغيرة مسقوفة بالقش والغاب وفي وسط الحارات منتقع ماء راكد ذو عفونة يخلطونه بوسخ هوكا (اعني عود الدخان) وبالسمن المغلي فيتركب منها عطر لخصوص المدن الهندية لاينسى الانسان رائحته واما منظر الحارات التجارية التي تعقد فيها الاسواق فهي بهجة المنظر لاسيما في المساء حيث يزداد منظرها بهجة بسبب لمعان المصابيح وتلاعب اضوائها وانوارها

واما المدينة الجديدة فحاراتها ذوات قواصر وقصور قليلة الارتفاع الا انها فاخرة البناء حتى لايظن الانسان وهو بعيد عنها انه يوجد في هذه المدينة شئ من هذه العمارات وتسلسل بنيان مسجدها واتصاله بقصرها وبابها المسمى بباب رومة والقصر الصغير الحادث يتركب منه سلسلة عمارات بهجة تذكر السواح عند مشاهدتها بالجهة المسماة لورة وبالحارات الظريفة بمدينة باريس ومدينة لوكتوو مملوءة بالاوثان القديمة والجديدة حتى انه يوجد فيها تماثيل

على

على صورة هرقول وابولون وونوس اى الزهرا والرعاة والراعيات المنسوبة لكل من الملك لويز الرابع عشر ولويز الخامس عشر وفيها اناس يبيعون المياه اللطيفة وهم يضربون بطاسات من نحاس فوق بعضها كأنهم ينادون بها كما يفعله بياعو الجوز الهندى وكذا بياعو الخضار والفواكه لترغيب المشترى ومتى تعود السياح الفرنساوى مدة على رؤية وجوه ابنائها وعلى ملابسهم يمكنه ان يتسلى عن بلاده ويتخيل انه مقيم بمدينة باريس

وعلى البعد من مدينة لوكتوو بفرسخين يوجد القصر المسمى قسطنطيا وهو قصر كان قد بناه الجنرال لامرتيبير لاجل الحاكم المسمى نايا ب الذى لم يدفع له ثمنه وقد صار الآن رسما له ويمكن للانسان مدة شهر أن يقيم فيه من غير مقابل واذا لم يطلب احد من السياحين النزول فيه يمكنه ان يمكث زمنا طويلا على حسب ارادته وبحسب الظن ان هذه العمارة الاحسانية سيؤول امرها بتقادم الزمن الى أن تصير كأمثالها من العمارات الموقوفة فانهم قد شرعوا منذ مدة فى توفير المصباح الذى يضيء على القبر وعلى السلالم التى بها ينزل الانسان

وكان ملك اود يجرى بذلك الوقت اشغالا عظيمة

بمعرفة مهندس انكليزى فشيدله رصد خانة فى ارض منخفضة فأخبرنى المهندس المذكور أنه لا يمكن مشاهدة النجوم فى هذه البلاد الا بارتفاع زائد مشرف على الافق لما أن الابخرة التى تنعقد فى الجو تمنع من مشاهدة الكواكب ولكن مصاريف هذه العمارة انما هى على الملك المذكور

وفى مدينة لوكتوو محل لطيف يشتمل على جملة من الطيور الغريبة وعلى مقدار عظيم من النمورة محبوس فى اقفاص من خشب وقد تهرب فى بعض الاحيان من تلك الاقفاص ومنها نمورة مستأنسة جدا لا تنفر من الملاعبة بالمس ونحوه ومنها نمورة لم تزل باقية على توحشها

وقد شاهدت مقاتلة الافيال التى تحبها الهنود وذلك انهم يحضرون فيلين ويحرشونهما على بعض فيمتنعان اولا عن المقاتلة وبعد ذلك يهيجان بالتدريج بسبب ضرب خفرائهما وبتحريض المتفرجين عليهما فيثبان على بعض ويتصادمان مصادمة عنيفة ومتى اشتد القتال بينهما وظهر فصلوهما عن بعض باطلاق بعض صواريخ

وقد شاهدت فى مدينة لوكتوو بعض لصوص يسمون توغ (اى الخناقين) كانوا فى السجن فسألت واحدا منهم

كان يستميل القلوب بكلامه وافعاله وطلاقة وجهه عن عدة ما خنقهم من الناس فأجابني من غير تردد ولا خوف بأنه خنق نحو خمسة واربعين او خمسين نفسا ولم يكن عمره اذ ذاك اكثر من خمسة وثلاثين سنة فسألته ان يبين لي كيفية ذلك ولو بالتجريب في نفسي فأبى وامتنع اما احتراما لي او خوفا من أن يتهم بالتمادي في قضيته وكانت جميع الناس قد اشاعت بالقبض على هؤلاء الاشقياء كبار الذنوب الذين يخنقون الناس لقصد السرقة ولترض آلهتهم المسماة كالي ويتكلمون في شأن هذه الافعال الذميمة الصادرة منهم كما يحكي الصياد في شأن صيده ويتكلمون ايضا في شأن اماكن جديدة ترغب السياحون في الاطلاع عليها فكأنها احبولة لاقتناص السياحين

وقد اتضح من تحقيق دعاويهم السيئة انهم يتفقون مع بعض على اسم الليل ويجتمعون طوائف من بلاد بعيدة في محل معين قبل ذهابهم للسرقة بمدة طويلة وانهم يسطون على قوافل السياحين بهذه المثابة وانه بمجرد اعطاء علامة التعدي المتفقين عليها يخنقون منهم مقدارا جسيما دفعة واحدة ولهم لغة اصطلاحية متعارفة بينهم وزعم بعض الناس أن هؤلاء اللصوص قد قننوا بجمع سرقتهم قانونا في مغارات بقرب

مدينة بومباى تسمى مغارات ايلورا وصارت الآن القمپانية الانكليزية تبذل مجهودها فى قطع دابرهم بالكلية ولم تزل ارباب الحكومة من الهنود تبحث مع التراخى عن القبض عليهم حتى ان اغلب هؤلاء الحكام كانوا يحامون عنهم فى السر بشرط أن يتقاسموا معهم ما يجمعونه من السرقة فاستكشف الآن اهل القمپانية أن الحكام المتكفلين بضبط القرى لهم اتفاق وتعاهد مع هؤلاء اللصوص

ولم تزل قمپانية الانكليز تتبع اللصوص المتسلحة لقطع الطريق المسمين داكوت تتبعا زائدا لقصد قطع دابرهم فقد كفلت ضباطا ماهرين لهم معرفة تامة فى لغة هذه البلاد والزمتهم بوظائف خصوصية لذلك اعنى لقطع دابرهم

ومدينة فيراباد هى تخت مملكة اود القديم والطريق الموصلة من لوكنو الى فيراباد ظريفة جدا ومزروعة بجامع اشجار المانغية وهى الآن محل نزهة دائمى وتلك المدينة لم تزل حافظة على اثارها العظيمة كيف لا وقد واقف الاسم المسمى اذ معنى فيراباد مدينة الابهة والبها وفيها ايضا سوق جميل جدا وعمارات مهمة غير أنها لا تشتمل على شئ من غرائب الابنية

واما مدينة اود الموضوعة على البعد من مدينة

فيزاباد بفرسخين فهى مدينة هندية على نمط مدينتى مانور وبندرابند فى البناء والمنظر وليس فيها شئ غريب يفوق ما فى هاتين المدينتين اللتين يفوقان عليها من كل الوجوه وقد كانت فيما سبق من اجل مدائن الهند وقلعتها مقصورة على الملك راما ويطلعون السياح على جبال صغيرة واطلال قديمة يزعمون انها كانت مساكن راما وزوجته سيتا وخادمها لاكشمانه ورئيس القردة المسمى انومان وفيها كثير من القردة المقدسة وهذه المدينة مملوءة كما فى مدن الحج الهندى بكثير من الدراويش الذين لايشتغلون الا بالاغتسال وتلاوة الصلوات والاوراد وتجبيل النساء اللاتى تكون ازواجهن اعنة اوعاجزين عن الوطئ فتذهب الازواج بنفسها اليهم لاجل اداء هذه الفعلة الذميمة

ومنظر الطريق الموصلة من فيزاباد الى مدينة سلطانبور هو عين مناظر طرق جميع بلاد اود اعنى فى كثرة الاشجار وفى المظلات الحسنة تحت فروع اشجار المانغية فى جميع اماكن الطريق ويتصل بمدينة سلطانبور نهر يسمى غوغرا وفى هذا النهر احجار مغطاة بقليل من الطين ويقال انها قنطرة كان قد شيدها قردة الملك راما حين

رجع الى مدينة اود بعد فتحه لجزيرة لانكاوكنت لا اطن الوقوف على آثار خرافية مثل هذه الآثار بمشاهدة مجموع تلك الاحجار وتشتمل ايضا على خمسة شيوخ من الاسلام كانوا قد استشهدوا فى الغزا وحكاية قتلهم المتواترة بين الهنود تعد من الهذيان وليس ثم فائدة من عمارة قبورهم الا ما يصل الى خادمها حيث يأخذ النذور والوظائف المرتبة على الحجاج منهم وقبل الوصول الى مدينة سلطانبور يجد الانسان مجارى سيول عظيمة وتلالا من التراب جسيمة وقد شاهدت امثال هذه التلال عينها بجوار جميع المدن العظيمة ولا يمكنى أن اعرف سبب تجمعها الذى لابد وان يكون محض امر عارض

وقد ارتحلت من مدينة سلطانبور فى خمسة وعشرين من شهر ايار مفارقا اخصاى الذين قابلتهم فى بلاد الهند واكرمونى فابتكرنى الندم على مداومتى للسياحة وانقطاعى عن الرفاق والوطن وكانت الرياح الحارة بذلك الوقت قد هبت علىّ فى ذلك القطر مع الشدة فانظر ما مقدار الرياح والفريطونات المستمرة من الساعة السابعة من النهار الى المساء وتثير زوابع عظيمة تملأ الفراغ من جميع الجهات وتحجب الطرف عن مشاهدة السماء فيكابد الانسان منها

ما يكابده من الم الحر لو كان داخل تنور فللمسافر وقت الصباح بل وقت السحر احسن له لما أن في باقي النهار لا بد وان يصبح الانسان على ابواب الخيام ابسطة على هيئة الستاير وترش عليها المياه لاجل ان يمر بها الهواء فيصيرها رطبة ففي هذا الفصل تجف الحشايش وتصير السهول الخالية عن العيون اشبه بصحرا لقحله غير أن اشجار المانغية التي هي ألطف الاشجار بهجة ومنظرا في الهندستان حيث لم تزل يانعة زاهية يتمتع الانسان بثمارها اللذيذة وبظلالها الرطبة وتعتقد الهنود ان الجنة قد اعدت لمن يغرس شيا من هذه الاشجار

فاذا انقرضت ببوسة تلك الرياح الحارة اعقبها السحام الامطار ثلاثة اشهر متوالية فيتعذر على الانسان السفر في هذه الاشهر حيث تصير جميع الاماكن بتلك المثابة وتفيض الانهار فتصير الغدران الصغيرة انهارا كبيرة حتى أن بعض الاقاليم يصير مدة من الزمن اشبه ببحيرات متسعة وتمتلأ الارض بضفادع وهوام سمية وتنتشر في الجو حشرات اشتبه بالسحاب ففي هذه المدة تأوي الحشرات داخل البيوت فمتى اضطر اصحابها الى فتحها خشية الحرارة وتصاعد العرق المستمر يصير الانسان عرضة لأن يبتلى بحرارة جذامية تسمى الحبات

القيحية التي ينشأ عنها ثوران البدن وهيجانه وفي هذا الفصل بعينه يصاب الانسان سريعا بابتداء الكبد

وبعد فراغ فصل المطر يبقى الجو ايضا مستورا بالسحب وذلك لما أن الشمس تبرز رطوبة الارض فتصير ابخرة يتكون منها سحاب ينعقد في الجو يمنع الهواء فيصير القطر ذا حرارة صعبة وينشأ عن الابخرة المتصاعدة وكذا تحليل رمم الحيوانات الكثيرة حمى وبائية

وبالجملة فيعقب هذا الزمن الردي فصل الشتاء فيتمتع فيه الناس بمثل ما في فرانسا من اعتدال مزاج القطر وصحو الزمن ففي هذا الفصل الظريف تشرق الشمس بعد أن يسبقها انبلاج الصبح اللطيف ويصير الجو صفوا خاليا عن الارخام رطب المزاج فتكون بذلك بلاد الهند ألطف واحسن البلاد وفي تلك البلاد ينبت القمح وكذا باقي الحبوب الغذائية ويبدو صلاحها فانهم يرمون الابزار ويزرعونها في الارض في شهر اوقطوبر ويحصدونها في شهري مارث وابريل

وحين تأخذ الرياح المارة في الهبوب يعلو على مطلع الشمس ابخرة كثيفة تكاد ان تحجبها عن الطرف بالكلية واذا قرب فصل الامطار تراكمت غمامات عظيمة كالجبال مصحوبة بالبرق والرعد وظهرت علامات تدل على اقبال تلك الامطار

الشبيهة بالطوفان المخيفة التى تغمر جميع الهندستان وهذه
الامطار هى سبب خصوبة الارض ولولاها لكانت بلاد
الهند صحراء قفرة وفى هذا الفصل يحصل ايضا نمو المواشى
حيث يوجد على الارض ما يقتات به من الحشايش
والاعشاب النابتة فلذا كان جميع حوادث الفرطونات
والرياح العاصفة الشديدة الهبوب فى جميع الاماكن تقابل
فى الهند بانواع تهليلات الافراح وافعال الثناء والشكر
ولما كانت هذه الحوادث الطبيعية غالبة على عقول الشعراء
من منذ احقاب خالية اطنب فى وصفها الشاعر ريغ ويدا
فى قصائده المتعلقة بمدح الشمس والشفق وايام الصحو
من السنة والهة الهواء المسماة ماروت الذين يرسلون
الفرطونات والامطار خصوصا التى يحدث عنها خصوبة
البلاد واله الامطار المسمى اندرا الذى يتفضل عليهم
بالغناء والمواشى ولا يوجد شئ من هذه الرياح الحارة ولا من
هذه الامطار الدورية خلف المكان المسمى ايمالايا بوادى
كشمير فانه لا يوجد هنالك رياح حارة ولا امطار دورية فان
المياه تجمد وقت الشتاء هنالك كما فى اقطارنا وليس للامطار
ثم فى تلك الاودية الكثيرة الخصوبة كبير نفع بل تكون فى غالب
الاوقات مضرة وينشا عن الفرطونات التى تكون فى الجبال

ثلوج تقع على الارض القفرلة اوصواعق تحرق اشجارا اوغابات بتمامها وفى مدينة قلقوطة واقليم بنغاله الواطى توجد امطار دورية غير أنه لايوجد الرياح الحارّة فهذه الاحوال يمكن أن تبين لنا الاماكن التى عملت بصدتها القصايد

وبين مدينتى سلطانبور وبيناريس مدينة يقال لها وانبور التى يوجد فيها دون بلاد الهند القنطرة المبنية بالاحجار فان ارض بلاد الهند بسبب كثرة رملها وفيضان الانهر فيها تمنع الهنود من بناء قناطر بالاحجار وربما غرقت هذه القنطرة بالكلية فى بعض السنين التى يكون فيها فيضان المياه خارقا للعادة ولم ترل قلعة هذه المدينة متسلطنة عليها مع قدمها وتلاشى بعضها ولا ينتفع بها الآن فى شئ ما وللانكليز على هذه البلاد تحكم كلى حتى أن حاكمها الاصلى لايمتاز عنهم الا بمجرد الاسم

وقد قضيت فصل الامطار فى مدينة بيناريس ثم رجعت الى مدينة قلقوطة وانا اشاهد المدن المختلفة التى على شواطئ نهر الكنك واعظم ما يرقى اليه من احوال اقليم بنغاله الواطى هو بقاء اهله على قبح الاخلاق وسوء التربية بالكلية ففى البلاد العليا توجد اللصوص وانواع كثيرة من الروافض

غير أن لهم اقل ما يكون هيئة وقار فى الخدامة وفى القيام بوظائف الحكم وكذلك فى البلاد المنقادة للقمبانية الانكليزية من مدة طويلة فيتعجب الانسان من دناءة نفوس اهاليها وقلة حيائهم وقد احدث الانكليز فيها مجرد الانتظام الظاهرى وكان الاولى لهم ان يحدثوا فيها انتظام حسن التربية وتهذيب الاخلاق لأن اقل شوكة بين الهنود انما هى مجرد نوع من الظلم يصير كالآكة له اما الاصاغر من الخدم والمستخدمين فعندهم دناءة النفس حتى فى السرقة وكذب وغش وارباب سكر فترى هؤلاء الطائفة متصفين بأنواع المساوى الموجودة فى الرتبة السافلة من الافرنج خادمى الذى صحبنى من اهل البلاد العالية تطبع بتلك الخصال الذميمة مثلهم بعد أن اخبرنى مرارا انه لم يعرف قط احدا من هؤلاء الناس واما التجار فانهم حين ما ارتكنوا الى مجادلات المحاكم الانكليزية رفضوا سلوك الصدق فى مصطلحاتهم التجارية

وقد شاهدت جميع المدن التى على شاطئ نهر الكنك وانه لا يوجد بها كما تقدم شئ من غرائب الآثار الهندية القديمة وكانت مياه هذا النهر لم تزل مرتفعة جدا ولم تحسر عن النقوش الموجودة فى صخور سلطان غنج فوصلت

الى مدينة قلقوطة فى غاية شهر سبطمبر فاشتغلت فيها بتجهيز أدوات السفر الى وطنى مع التأسف والحزن لما أن وسائطى قد نفدت بالكلية فاضطررت الى أن انظر الى تلك البقاع * التى كان يلزم لى مشاهدة كثير من احوالها وغرائبها نظرة الوداع * والاحظها بعين التأسف والاقلاع * والى هنا انتهت سياحة الهند وكان تهذيب ألفاظها وتنقيحها * ومقابلتها بقدر الامكان مع مترجمها وتصحيحها * بمعرفة الفقير لرحمة ربه الجليل * محمد الفرغلى ابن اسماعيل * الطهطاوى * غفر الله له جميع المساوى *

مع ملاحظة حضرة البيك ناظر قلم

الترجمه * ومدرسة التجهيزية

والالسنه * احسن الله

للجميع احوالهم *

وختم بالصالحات

اعمالهم *

امين

تم

وقد كمل طبعها الجميل * ورونق رقمها الذى ليس له مثيل *
بدار الطباعة المصرية البهية * احدى المآثر الخديوية
الجليه * يوم الاثنين فى عاشر شهر ربيع الثانى * سنة خمس
وستين ومأتين بعد الالف من هجرة من اوتى السبع المثانى
* صلى الله وسلم وبارك عليه * وعلى آله واصحابه ومن
ينتمى اليه * وذلك فى ايام ولاية دولة صاحب العز
والاقبال * والسعد الطالع بالمجد
والاجلال * حضرة افندينا الصدر
الاعظم * الحاج عباس باشا
المشير الافخم * متع الله
الانام بدوام ايامه *
ونفع الجميع بمسك
ختامه *

امين